الفنون النثرية

ازدهر النثر الفني في هذا العصر، وتعددت فنونه، فأنشأ الخطباء الخطب البليغة، وكتب الناثرون في فنون السيرة، والحكاية والأقصوصة، والمنامة، والمقامة، والرسائل الديوانية والأدبية والإخوانية، وفي النثر التأليفي، وغير ذلك.

الخطابة:

هي – كما يقول الحوفي – «فن مشافهة الجمهور، وإقناعه واستمالته»[1]. وقد عرف العرب الخطابة منذ أقدم العصور، ونبغ فيهم خطباء مشهورون، وازدهرت الخطابة في هذا العصر بسبب الحروب الطاحنة التي خاض المسلمون غمارها ضد الفرنج، فأخذ الخطباء يلقون خطبهم على الناس في المساجد في أيام الجمع والأعياد والمناسبات الدينية، وعند اشتداد المعارك والأخطار، لاستنهاض هممهم، وحضّهم على الجهاد، وبذل النفس والنفيس في سبيل نصرة دينهم، والدفاع عن أرضهم ومقدساتهم وأعراضهم.

كما أخذ القادة يلقون على المجاهدين خطباً تحضّهم على الاستبسال في القتال، والترغيب في التضحية بنفوسهم في سبيل إعلاء كلمة الله، ولنيل إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. ولكن المصادر التاريخية والأدبية التي بين أيدينا لم تورد إلاّ القليل من تلك الخطب، ولعلَّ ذلك يعود إلى ضياع كثير من المصادر التي تضمنتها، وإلى أن المؤرخين ومؤرخي الأدب لم يدونوا كثيرا من هذه الخطب لكونها – غالباً – نثراً شفهياً يلقى ارتجالا.

وقد اشتهر في هذا العصر عدد كبير من الخطباء والوعاظ، منهم أبناء العديم الذين ولي عدد منهم قضاء حلب وخطابتها[2]، وأبو البركات بن الخطيب هاشم خطيب حلب الذي نقل اليه صلاح الدين الخطابة من بني العديم في سنة ٥٧٩هـ[3]. وشمس الدين محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي

---

(١) أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة: ص٥.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٦: ص٥–٥٧.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٤٧.

وهو أول من خطب بمصر لبني العباس في عهد صلاح الدين، وقد بلغ عنده مكانة سامية، وكان مقصد الشعراء ومحط آمالهم[1]، والحسن بن الخطير (-٥٩٨هـ)[2] «وله خطب وفصول وعظية مشحونة بغريب اللغة وحواشيها»[3]، وابن زكي الدين الدمشقي صاحب خطبة فتح بيت المقدس، وابن نجا الدمشقي (-٥٩٩هـ)[4]، ويحيى بن معط الزواوي (-٦٢٨هـ)[5] والقاسم بن القاسم الواسطي(-٦٢٦هـ)[6] وسبط ابن الجوزي، وكمال الدين بن العديم (-٦٦٠هـ)، وهو أول حنفي خطب بجامع الحاكم، ثم خطب بجامع دمشق[7]، وعز الدين بن عبد السلام (-٦٦٠هـ).

وقد كثرت في هذا العصر بصورة خاصة الخطب الحربية، والخطب الدينية.

الخطب الحربية: هي الخطب التي كان يلقيها السلطان أو القائد على أمراء الجيش في المجالس الحربية، أو يلقيها القائد على جنوده، لإثارة الحماسة في نفوسهم، ولحثّهم على مواجهة الأعداء بكل بسالة وقوة، لتحقيق النصر عليهم، ولحماية أرواح المسلمين، وأموالهم وأوطانهم ومقدساتهم منهم، ومن أمثلة هذه الخطب، الخطبة التي ألقاها صلاح الدين الأيوبي في أمراء جيشه، وأصحاب المشورة فيه، بعد المصاف الأعظم على عكا، حيث قال: «بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٥: ص٣٤٣. وأبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٩٢.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء: ج٨: ص١٠٠-١٠٨.

(٣) المصدر السابق: ج٨: ص١٠٨.

(٤) أبو شامة المقدسي: ذيل الروضتين: ص٣٤-٣٥، وابن تغري بردى: النجوم الزاهرة: ج٦: ص١٨٣.

(٥) السيوطي: بغية الوعاة: ج٢: ص٣٤٤، ومعجم الأدباء: ج٢٠: ص٣٥-٣٦.

(٦) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٦: ص٢٩٧.

(٧) أبو شامة المقدسي: ذيل الروضتين: ص٢١٧، وابن شاكر: فوات الوفيات: ج٣: ص١٢٦-١٢٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٧٢، ٢٠٤-٢٠٥، ٢٠٨-٢٠٩.

قد نزل في بلدنا، وقد وطئ أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصرة عليه – إن شاء الله تعالى– وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بُدَّ من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك»[1].

وخطبته في أمراء جيشه عندما توجه الفرنج مرة أخرى لاحتلال القدس من المسلمين سنة ٥٨٣هـ فقال: «الحمد لله، والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أنّ دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، فإن هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلاّ أنتم، فإن لويتم أعنتكم – والعياذ بالله – طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم»[2].

وكما رأينا، فإن هذه الخطب كانت تلقى ارتجالاً في الظروف الحربية الطارئة، لذا فقد امتازت بالإيجاز، فهي تبدأ بالبسملة، وبحمدالله، والصلاة على نبيه، أو بحمد الله، والصلاة على نبيه فقط، ثم ينتقل الخطيب إلى الموضوع الرئيس، ويمتاز أسلوبها بالوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد والصنعة البديعية.

وأمّا الخطب الدينية: فهي الخطب التي تلقى في أيام الجمع والأعياد، والمناسبات الدينية، وأشهرها خطب الجمع، وهي تتكون من خطبتين:

الأولى: تتكون – غالباً – من مقدمة وعرض، ففي المقدمة: يستهل الخطيب خطبته بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على نبيه وآله وصحبه، ومن تبعه

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١١٤.

(٢) المصدر السابق: النوادر السلطانية: ص٢١٦.

بإحسان إلى يوم الدين، ثم ينتقل إلى الحديث عن الموضوع الرئيس، وعندما ينتهي عرضه لهذا الموضوع، يجلس قليلاً، ثم يقوم لإلقاء خطبته الثانية: فيدعو فيها للخليفة أولاً ثم للسلطان أو الملك، ثم لسائر المسلمين وتعتبر الخطبة الثانية خاتمة للخطبة الاولى. وعلى الرغم من كثرة الخطب الدينية التي ألقيت في هذا العصر لم يصلنا منها سوى الخطبة التي ألقاها القاضي محيي الدين بن زكي الدين بناء على أمر صلاح الدين في أول جمعة خطب بها في بيت المقدس بعد الفتح سنة ٥٨٣هـ، وهي خطبة طويلة وبليغة[١]، فعندما رقي المنبر قرأ سورة الفاتحة، ثم استهل خطبته بالابتهاج بقطع دابر الأعداء الظالمين، ثم حمد الله – تعالى – على نعمه بعامه، وعلى إعزازه للإسلام والمسلمين بخاصة، فقال: ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين** ﴾[٢]. ﴿ **الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين** ﴾[٣]، ﴿ **الحمد لله الذي خلق السماوات والارض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾[٤]، ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا** ﴾[٥].

ثم ذكر الشهادتين، وأثنى على النبي (ﷺ) وعلى خلفائه الراشدين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

وانتقل بعد ذلك إلى الموضوع الرئيس، فبشّر المجاهدين برضوان الله عنهم، لما يسره الله لهم من استرداد البيت المقدس من أعدائهم، ثم أخذ بتعداد فضائل

---

(١) انظر الروضتين: ج٢: ص١١٠ – ١١٢، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٢١٨ – ٢٢٧ وعبدالجليل عبدالمهدي: مقال: «ابن زكي وخطبته القدسية»: دراسة وتحقيق ص١٧٦–٢٣٢: مجلة مجمع اللغة العربية الأردني: السنة الثالثة عشرة: العدد: ٣٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية (٤٥).

(٣) سورة الفاتحة: الآيات (١–٣).

(٤) سورة الأنعام: الآية رقم: (١).

(٥) سورة الإسراء: الآية رقم (١١١).

بيت المقدس، فقال: « . . أيها الناس: أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة[1]، وردّها الى مقرّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام[2]... وإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، وهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد (عليهما الصلاة والسلام)... . وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر... . وهو أولى[3] القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين الشريفين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلاّ إليه. . »، ثم هنأ هؤلاء المجاهدين لاختصاص الله لهم دون غيرهم بفضيلة هذا الفتح العظيم، وتشريفهم به، مما يقتضي منهم شكر الله تعالى على هذه النعمة، ثم عاد ثانية إلى ذكر فضائل بيت المقدس، وحمد الله على هذا النصر الذي تحقق لهم دون غيرهم، وتهنئتهم به، ثم نهاهم عن اتباع أهوائهم، والنكوص عن الجهاد، وذكرهم بأن النصر من عند الله وحده، فعليهم أن يلتزموا بطاعة الله، والبعد عن نواهيه... . ثم دعا للاستمرار في الجهاد لتحرير ما تبقى من أرض المسلمين بأيدي الفرنج بعد أن ضعفوا وهانوا، وقلت أعدادهم كثيراً، فقال: « . . . . والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم. . جدّوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله. . . . .

الله أكبر! فتح الله ونصر! وغلب الله وقهر!، وأذل الله من كفر!. واعلموا – رحمكم الله – أنّ هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها. . . . والأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله – تعالى – بهذا العدو المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون؟!. . . . أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا

---

(١) من الأمة الضالة: من الصليبيين: إشارة إلى وصف الله تعالى لهم بالضالين في سورة الفاتحة.

(٢) اشارة إلى الاحتلال الصليبي لها من عام (٤٩٢-٥٨٣هـ) واستباحة الحرمات فيها خلال هذه المدة.

(٣) في الأصل: أول، والصواب: أولى.

معشر المسلمين بنصر من عنده ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن الذي ينصركم من بعده؟!....** ﴾»[1].

وجلس قليلاً، ثم قام وأتبع هذه الخطبة بالخطبة الثانية التي دعا فيها للخليفة، ثم للسلطان صلاح الدين ولآله وللمسلمين دعاءً حاراً وبليغاً، وختمها بقوله: « .... فأجب دعوته ودعاءه في قوله (أي صلاح الدين) ﴿ **رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي، وعلى والدي، وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾»[2].

ومما هو جدير بالذكر أنَّ هذا الخطيب ألقى ثلاث خطب أخرى في الجمع التالية، ولكن لم تصلنا منها سوى هذه الخطبة.

التقويم الفني:

سلك الخطيب في هذه الخطبة نهج الخطباء السابقين فجعلها خطبتين، اشتملت الأولى منهما على المقدمة والعرض، واشتملت الثانية على الدعاء، وهو الخاتمة.

وقد استهلَّ الخطبة بحمد الله على هذا النصر المبين بثماني تحميدات من التحميدات الواردة في القرآن الكريم، وأضاف إليها تحميدتين من إنشائه، فجاءت هذه التحميدات استهلالاً بارعاً يتناسب مع جلالة النصر، وعظمة الفتح، ويعبر عن مدى ابتهاج الخطيب والمسلمين به، بعد أن تم تحرير بيت المقدس الذي بقي أسيراً في أيدي الغزاة إحدى وتسعين سنة هجرية.

ثم ذكر الشهادتين وصلى على النبي (ﷺ) وعلى خلفائه الراشدين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان جرياً على سنة الخطباء السابقين، واتباعاً لمقاييس النقاد والبلغاء العرب[3].

---

(١) الآية رقم (١٦٠) من سورة آل عمران.

(٢) الآية رقم (١٩) من سورة النمل.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين. ج٢: ص٦، وابن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام: ص٥٦-٥٩، ١٦٦، ١٦٧.

فجاءت هذه المقدمة الطويلة تمهيداً مناسباً لموضوع الخطبة من حيث الطول والمعنى، ثم انتقل الى الموضوع الرئيس بقوله: «أيها الناس أبشروا برضوان الله....» فعرض الأفكار التي هدف إلى الحديث عنها، وتركيزها في أذهان السامعين، وهي: بيان عظمة الفتح الذي يستدعي كل الحمد والشكر لله عليه، والإشادة بالسلطان صلاح الدين وجنده المجاهدين الذين خصهم الله بهذا النصر العظيم دون غيرهم، وتعداد فضائل بيت المقدس، والمسجد الأقصى المبارك، وبيان مكانتيهما لدى المسلمين، وحَثَّ المجاهدين على شكر الله تعالى على عظيم نصره، باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وعلى متابعة الجهاد حتى تحرير الارض المحتلة جميعها.

ثم أتبع هذا العرض بالخطبة الثانية التي جاءت خاتمة مناسبة للخطبة الأولى على النحو المتبع في خطب الجمع، والتي دعا فيها للخليفة أولاً، ثم دعا بحرارة بالغة للسلطان صلاح الدين وآله بخاصة، وللمسلمين بعامة.

وقد جاءت أجزاء هذه الخطبة من مقدمة، وعرض وخاتمة ملائمة لموضوعها، ومترابطة فنياً.

لقد شهد ابن الزكي بنفسه – وهو الفقيه المسلم المتلهف على استعادة بيت المقدس، والمسجد الأقصى المبارك – هذا الفتح المبين، وشارك المسلمين الابتهاج به، ثم قدّم هذه التجربة الشعورية العميقة التي عاشها في هذه الخطبة التي توفر لها الصدق الفني والتاريخي للتعبير عن مشاعر الخطيب والمسلمين إزاء هذا الحدث العظيم، فبيّن ما يجول في ذهنه من خواطر وأفكار، وصوَّر ما يختلج في صدره من عواطف ومشاعر عميقة حارة صادقة، فحفلت هذه الخطبة بالمشاعر الدينية المتأججة المتمثلة في الشكر العميق لله على هذه النعمة العظمى، والتقديس للمسجد الأقصى المبارك، ولبيت المقدس، والإعجاب بصلاح الدين وجنده الذين تحقق هذا النصر على أيديهم، والثناء على جهادهم، وحثّهم على الإلتزام بطاعة الله، واجتناب نواهيه، ومواصلة الجهاد حتى تحرير الاراضي المحتلة

كلها، وهذه العواطف يجمعها شعور عام واحد هو الابتهاج بهذا النصر العظيم، مما أضفى على النص كله وحدة في المشاعر والأحاسيس.

وقد استمد الخطيب معانيه - كما رأينا - من المصادر الإسلامية، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والتاريخ الإسلامي والمفاهيم الإسلامية العامة، ففضلاً عن الصراع العسكري بين المسلمين والفرنج بدا الصراع في هذه الخطبة واضحاً بين العقيدتين الإسلامية القائمة على التوحيد، والنصرانية القائمة على التثليث، اذ ركز الخطيب فيها على الآيات التي تؤكد وحدانية الله (جلَّ وعلا) وتنفي الشرك عنه، وتندد بالمشركين بالله مثل: ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا** ﴾[1].

والتي تؤكد نبوة المسيح - عليه السلام - وعبوديته لله تعالى مثل: ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله** ﴾[2]، ومثل: ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم** ﴾[3]، وقد استخدم - أيضاً - بعض المصطلحات النصرانية مثل: شعار الصلبان، وعبدة الصلبان، والتثليث.

وقد جاءت معانيه واضحة، بعيدة عن الغموض، والغرابة والتعقيد، ومرتبة ترتيباً منطقياً سليماً، تدور - على الرغم من تعددها - حول موضوع واحد هو الابتهاج بهذا الفتح العظيم، وقد عرضها عرضاً مقنعاً، معتمداً على قوّة حججه المستمدة من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والأقوال المأثورة، الدالة على صحة أفكاره ومعتقداته.

كما لجأ كثيراً إلى الإطناب، لتأكيد أفكاره في أذهان السامعين، تارة عن طريق تكرار المعنى الواحد في قوالب لفظية مختلفة، مثل التحميدات المتتالية في مطلع الخطبة، ومثل قوله: «هو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومدفن الرسل،

---

(١) سورة الإسراء: الآية رقم (١١١).

(٢) سورة النساء: الآية رقم (١٧٢).

(٣) سورة المائدة: الآية رقم (١٧).

ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي...» وتارةً عن طريق التفصيل بعد الإيجاز، مثل: وإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، وهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد (عليهما الصلاة السلام)، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام...

وجاءت ألفاظه فصيحة جزلة مناسبة لموضوع الفتوح والتهاني، ومألوفة بعيدة عن الغرابة. وتراكيبه قوية، وبعيدة عن التعقيد، وقد تأثر أسلوبه كثيراً بالقرآن الكريم بالاقتباس منه تارة، مثل: آيات التحميد، والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، والآيات الدالة على فضائل المسجد الأقصى المبارك وبنشر آياته تارةً أخرى، مثل قوله: وأظهر دينه على الدين كله، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**﴾[1]، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع، ويذكر فيه اسمه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه....**﴾[2].

وقد كان النقاد – آنذاك – يستحسنون اشتمال الخطبة الدينية على الآيات الكريمة، لأن ذلك – كما يقول الجاحظ: «مما يورث البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع»[3]، ولأنه – كما يقول ابن عبد الغفور الكلاعي: «من أنجح ما ضمنه المرتجل، وأرجح ما استعان به المحتفل....»[4].

وتأثر أسلوبه بالحديث الشريف، إذ نثر في خطبته بعض الأحاديث الشريفة مثل قوله: وهو أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين الشريفين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، إشارة الى الحديث الشريف «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»[5].

---

(١) سورة الفتح: الآية رقم (٢٨).

(٢) سورة النور: الآية رقم (٣٦).

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين: ج١: ص١١٨.

(٤) ابن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام: ص ١٦٩.

(٥) صحيح البخاري: المجلد الأول: ص١١٨.

ومثل: وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، إشارة إلى قوله (ﷺ) في بيت المقدس: «أرض المحشر والمنشر، إئتوه فصلوا فيه، فان صلاة فيه كألف صلاة في غيره»[1]، وتأثر بأحداث التاريخ الإسلامي، مثل قوله: «... وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أول من رفع عن هذا البيت المقدس شعار الصلبان....»، ومثل ربطه بين واقع الجيش الإسلامي في عهده وبين وقائع التاريخ الإسلامي المشهورة مثل قوله: «فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية..».

كما تأثر بالشعر العربي، مثل قوله: «فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء»، إشارة لقول أبي تمام:

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الارض في أثوابها القشب[2]

ولوَّنَ أسلوبه باستخدام الأساليب الخبرية – أحياناً – والأساليب الإنشائية – أحياناً أخرى – مثل الأمر بمعنى التبشير في قوله: أبشروا برضوان الله، فليهنكم، وبمعنى النصح والإرشاد في قوله: اقدروا هذه النعمة، واحمدوا الله، واحفظوا هذه الموهبة.... وبمعنى الدعاء مثل: اللهم أدم سلطان عبدك.... وعم بدولته البسيطة، والتحذير مثل: وإياكم أن يستزلكم الشيطان.... والإغراء مثل: الجهاد الجهاد.

واستخدم الصنعة البديعية كثيراً في خطبته، فالتزم بالسجع، وأكثر من الإزدواج، وحسن التقسيم، دون التضحية بالمعاني أو التجربة الشعورية العميقة، واستعان بالجمل القصيرة المتلاحقة، فجاءت أسجاعه كالقوافي، ذات إيقاع موسيقي مثير للابتهاج والحماسة، مثل: الحمد لله مُعِزَّ الإسلام بنصره، ومُذِلَّ

---

(١) سنن ابن ماجه: ج١: ص٤٥١: الحديث رقم (١٤٠٧).

(٢) ديوان أبي تمام: ج١: ص٤٦.

الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره.... كما استخدم أحياناً الطباق والمقابلة والجناس مثل: وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه، وأغناكم بما أمضته، كان وقد، عن سوف وحتى، أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والإزدجار بزواجره، وأرض المحشر، وصعيد المنشر وغيرها.

وقد اهتم بالصور الأدبية الحيّة التي تقوم على التشابيه، والاستعارات مثل صوره المثيرة للاشمئزاز عند وصفه لحال القدس في أثناء الاحتلال، مثل: أبشروا برضوان الله... لما يسره على أيديكم من استرداد هذه الضالة، من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت... وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتدَّ عليها رواقه، واستقرَّ فيها رسمه، ومثل صوره المثيرة للابتهاج والسرور المستوحاة من أمجاد المسلمين، مثل: وظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية.... ورفع قواعده بالتوحيد، فإنه بني عليه وشيد بنيانه بالتمجيد، وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه.... ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي.... وقد احتفى الخطيب في صوره كثيراً بالتجسيم والتشخيص فأضفى عليها حياة وحركة مثل قوله: فاحفظوا هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى الله تعالى التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذروا من اتباع الهوى.... وإزالة ما بقي من الغصة، جدوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، واقطعوا فروع الكفر، واجتثوا أصوله، وسيروا إليها سرايا عزماتكم.

واستمد الخطيب هذه الصور - كما رأينا - من ثقافته الدينية والأدبية والتاريخية الواسعة ومن بيئته.

وقد توفرت لهذه الخطبة خصائص الخطبة البليغة الناجحة، والتي يمكن اعتبار خصائصها خصائص للخطب البليغة في هذا العصر.

obeikandl.com

النثر القصصي

اهتمَّ الناثرون في هذا العصر بالنثر القصصي بمفهومه العام؛ الذي يشمل الخبر والحكاية والحديث القصصي، وما إلى ذلك، ولا نعني بذلك القصة بمفهومها الحديث، إذ إنها أصبحت الآن فناً مستقلاً له أصوله وقواعده، وخصائصه الثابتة، والمتعارف عليها لدى النقاد في العصر الحديث.

ولقد تنوع النثر القصصي في هذا العصر، فقد ظهر منه نثر الحكاية، والأقصوصة، والقصة الطويلة، كما تنوعت هذه القصص فمنها الواقعية، ومنها الخيالية، ومنها الرمزية.

فمن الحكايات والأقاصيص في هذا العصر ما رواه أسامة في كتابه «الاعتبار» إذ قدّم لنا صوراً من حياته وحالة عصره على شكل حكايات وأقاصيص برع فيها الى حد كبير.

ومن أمثلة حكاياته ما رواه عندما هاجم الروم شيزر سنة ٥٣٢هـ وضربوها بالمجانيق فقال: «.. وضربت[١] حجر المنجنيق رجلا من أصحابنا كسرت رجله، فحملوه إلى بين يدي عمي (أي أمير شيزر آنذاك) وهو جالس في دهليز الحصن، فقال: هاتوا المجبر، وكان بشيزر رجل صالح، يقال له: يحيى، صانع في التجبير، فحضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب الحصن، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه فطيرته! فدخل المجبر الى الدهليز، فقال عمي: ما أسرع ما جبرته! قال: يا مولاي، جاءته حجر ثانية أغنته عن التجبير!»[٢].

لقد صوَّرت هذه الحكاية - كما رأينا - جانباً من حياة أهل شيزر عندما حاصرها الإفرنج، وقذفوها بحجارة المجانيق، واستخدم أسامة فيها اللغة السهلة البسيطة، وأجرى فيها الحوار باللغة الدارجة، مثل: هاتوا المجبر، ما أسرع ما

---

(١) الصواب ضرب حجر المنجنيق.. كسر رجله.. فضرب الرجل المكسور في رأسه فطيره!.... جاءه حجر ثان أغناه عن التجبير!.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١١٤.

جبرته!، جاءته حجر ثانية أغنته عن التجبير!.

وعلى الرغم من قصر هذه الحكاية، فقد نوع فيها في أسلوبه بين السرد والوصف والحوار، فجاءت نابضة بالحياة والحركة، والأحداث المتتابعة.

ومن أمثلة أقاصيصه أيضاً ما رواه على لسان رجل ببغداد، بأن القاضي أبا بكر محمداً الأنصاري الفرضي حدّثه أنه في أثناء طوافه حول الكعبة عند الحج وجد عقداً من اللؤلؤ، فسمع صاحبه يعلن عن فقده، وجعل لمن يرده عليه مكافأة كبيرة، فسأله عن صفاته، فحددها له، فأعاده إليه، ورفض أخذ المكافأة، لأنه فعل ذلك إرضاء لله عزَّ وجل، فقال صاحب العقد: «استقبل بنا الكعبة وأمّن على دعائي، فاستقبلنا الكعبة، فقال: اللهم اغفر له وارزقني مكافأته....»(١).

وبعد قضاء فريضة الحج سافر ذلك الرجل الأمين الى مصر ثم ركب البحر إلى المغرب، فاعترض مركب للروم مركبهم، وأخذ من فيه أسرى، فاسترقه أحد القسوس، فبقي في خدمته الى أن دنت وفاته، فأطلق سراحه، فسار الى المغرب واشتغل عند أحد الخبازين، ثم علم أحد الأثرياء بمعرفته بالكتابة والمحاسبة فاستخدمه عنده، وسلمه جباية أمواله من الآخرين، وبعد مدة من الزمن عرض عليه الزواج من ابنته التي وصفها له بأنها كتلة من العيوب، فرضي بذلك وعقد عقد زواجه عليها.

ثم روى الرجل ما حصل قائلاً: «.. فلما كان بعد أيام قال لي: تهيأ لدخول بيتك، ثم أمر لي بكسوة فاخرة، ودخلت إلى دار فيها التجمل والآلات ثم أجلست في المرتبة، وأخرجت العروس تحت النمط، فقمت لتلقيها، فلما كشفت النمط رأيت صورة ما رأيت في الدنيا أجمل منها! فهربت من الدار خارجاً، فلقيني الشيخ، وسألني عن سبب هربي، فقلت: إن الزوجة ما هي التي ذكرت لي فيها من العيوب ما ذكرت، فتبسم، وقال: يا ولدي هي زوجتك وليس لي ولد سواها، وإنما ذكرت لك ما ذكرت لئلا تستقلّ ما تراه، فعدت وجليت عليّ».

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٧٨.

وفي اليوم التالي أخذ الزوج يتأمل ما على عروسه من الحلي والجواهر فشاهد من جملة ما عليها العقد الذي وجده في أثناء طوافه بالكعبة، فاستغرق في التفكير في كيفية وصول هذا العقد إلى عروسه، فاسترعى ذلك انتباه والد زوجته فسأله قائلاً: « فيم تفكر؟! فقلت : في العقد الفلاني، فإني حججت في السنة الفلانية فوجدته في الحرم، أو عقداً يُشبهه. فصاح وقال: أنت الذي رددت عليّ العقد؟! قلت: أنا ذاك ، فقال: أبشر فإن الله قد غفر لي ولك، فإني دعوت الله – سبحانه – في تلك الساعة أن يغفر لي ولك، وأن يرزقني مكافأتك، وقد سلمت إليك مالي وولدي، وما أظن أجلي إلاّ وقد قرب، ثم أوصى إليّ، ومات بعد مديدة قريبة، رحمه الله »(١).

وقد بدت في هذا النص معظم مقومات الأقصوصة: فهو قصة قصيرة يدور موضوعها حول فضيلة خلقية واحدة هي الأمانة وجزاؤها، وتصور حوادثها جانباً من الحياة الواقعية للمسلمين – آنذاك – وبطل القصة قاضٍ معروف، وقد جاءت أحداثها متتالية، وقليلة التفرع والتفاصيل، وقد تحركت بسرعة نحو العقدة بعد عثور الرجل الأمين على العقد، ثم إعادته إلى صاحبه دون مقابل طلباً للأجر، ثم وقوعه في أسر الروم، ثم خلاصه من الاسترقاق، واستكتابه من قبل أحد الأثرياء المغاربة، ثم مشاهدته للعقد ضمن حلي عروسه، ثم اتجهت الحوادث بسرعة نحو الحل حيث اكتشف أن صاحب العقد هو والد عروسه، فكان جزاء أمانته أن كافأه الله تعالى بالزواج من الابنة الوحيدة لصاحب العقد الثري، فآلت إليه ثروته كلها.

وقد أثار تطور الأحداث، ونمو الحركة في هذه الأقصوصة عنصر التشويق فيها لمعرفة سر وصول هذا العقد إلى العروس.

وقد كان الرجل الأمين بطل هذه الأقصوصة، وشخصيتها الرئيسة، وظهرت إلى جانبه شخصية أخرى مهمة هي شخصية صاحب العقد، والد العروس، وشخصيات

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٧٨–١٨٠.

أخرى ثانوية قليلة الأهمية هي القسيس وصاحب المخبز والعروس، وقد أدى كل منها دوره الوجيز الملائم له.

أمّا مكان الأقصوصة فقد اتسع كثيراً حيث شمل البيت الحرام، وطريق السفر براً إلى مصر ثم بحراً إلى بلاد المغرب، ثم بعض بلاد الروم، ثم إحدى بلاد المغرب.

واتسع زمانها فامتد إلى سنوات. واستخدم الكاتب فيها اللغة الفصيحة السهلة المألوفة الخالية من الغرابة والصنعة البديعية المتكلفة، كما نوَّع فيها بين السرد الإخباري والوصف والحوار.

وظهرت إلى جانب ذلك قصص رمزية وعظية طويلة منها قصة «النسر والبلبل» للمهذب أبي طالب الدمشقي، وملخصها: أن نسرا كان يحلق في الجو فشاهد روضة يانعة، وسمع تغريداً ساحراً ينطلق منها، فهوى من عليائه ليرى هذا الطائر المغرد، فوجده بلبلاً صغير الحجم، ضئيل الجسم، أسود اللون، فريداً بغير أليف أو صديق، فتعجب من امتلاك هذا البلبل الضئيل لهذا الصوت، وافتقاره هو لمثله على الرغم من ضخامة جسمه، وكريم خصاله وجمال ألوانه، وقوة بطشه، وطول عمره، وامتلاكه لعرش الطيور على مر الدهور، ثم سأل البلبل متعجباً: من أين أتى بهذا التغريد الجميل؟! فأجابه: بأن الصانع الحكيم لا يهب الأصوات حسب الأجسام، وأنه اقتبس هذه الأنغام العذبة من احتفال ليلي يقيمه في هذه الروضة صاحبها الملك، الذي يأتي إليها مع ندمائه بعد هبوط الظلام، وطلب من النسر أن يحذو حذوه، فيبيت في هذا الروض، ويستمع الى ألحان هذا الحفل الساهر، «فلما سمع النسر مقاله ودَّعه وطار، وقال: لعل في الانتظار بلوغ الأوطار، وأثبت في نفسه الرجوع، وقال: أمنع عيني الليلة الهجوع... ثم سقط على بعض الأشجار، متوخياً بزعمه مضي النهار، وأدركه الليل فنام، وغرق في بحر الكرى، وكلما حركت سواكنه داعيات الطلب، وأقامت قاعده مزعجات الأرب. قال: الليل بعد في إبان شبابه، ولعله ما جاء الملك مع أصحابه ولم يزل

في رؤيا أحلام الأباطيل، وإقامة المعاريض الفاسدة التآويل، حتى وضح فلق الصبح عن مشرقه.... فتنبه من رقدة غفلته، وطار من وكر جهالته، وأمّ روضة البلبل طائراً، ونزل عليها دهشاً حائراً، وقد تفرق جمع الملك في السكك.... فقال له البلبل: يا هذا ما الذي شغلك حتى أشغلك؟! وما الذي منّاك، حتى عدمت مناك ؟!.... أما علمت أن من استلذَّ المنام، واستطاب الأحلام، عدم المرام، ووجه إليه الملام؟! وأن من شد وسط اجتهاده، وصل إلى بلوغ مراده...»، ثم أتم هذه القصة بفصل وعظي[1].

وهذه القصة (بالمعنى الواسع للقصة) -كما نرى- رمزية وعظية هدفها حث الناس على الجد والاجتهاد في العمل، وترك التواني والإخلاد للكسل.

وقد جعل الكاتب الروضة الزاهرة مسرحاً لأحداث قصته، ووصف الجو العام المحيط بها، كما جعل زمانها يوماً وليلة.

وقد بدأت أحداث هذه القصة بالتدرج نحو العقدة عندما سمع النسر الضخم القوي المعتد بنفسه التغريد الساحر للبلبل الضعيف، ثم تدرجت الحوادث نحو الحل بمحاولته تعلم الأنغام العذبة من الحفل الليلي الذي يقيمه الملك وندماؤه في ذلك الروض الجميل أسوة بالبلبل، ثم سارت الأحداث نحو الحل عندما أخلد النسر الى النوم الطويل والكسل حتى بزغ الفجر وانفض الحفل، ففشل في تحقيق مراده.

أمّا الصراع فقد جاء في هذه القصة ضعيفاً، والحركة فيها قليلة ومحدودة لأن الحوار الوعظي الطويل المباشر قد طغى على أسلوبها، ولأنه أكثر من المواقف الوصفية فصدر التشويق عن موضوع القصة أكثر مما صدر عن تطور الأحداث ونمو الصراع فيها.

وعلى الرغم من طول هذه القصة نسبياً إلاّ أنها لم تشتمل سوى على شخصيتين

---

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٤٠-٣٥٣.

رئيستين من عالم الطيور، وهما النسر والبلبل، وقد جسَّد الكاتب منهما نموذجين بشريين، وأسقط عليهما الخصائص الإنسانية من نطق وتفكير وأحاسيس ومشاعر، فأخذا يتحاوران بما أسفر عن سمات كل منهما وطبائعه، فبدا النسر فيها ممثلاً للقوة والجبروت وضخامة الجسم وجماله، والغرور، والكسل، وظهر البلبل ممثلاً للضعف، وضآلة الجسم، والجد وجمال الصوت، والحكمة، حيث أعطى الكاتب في حواره كلاً من الطائرين الدور اللائق به، وأنطقه بما يناسبه، مما أضفى على عظاته طابعاً لطيفاً خفف من وطأة الوعظ المباشر.

وقد جاءت هذه القصة حافلة بالمواعظ والحكم، والمعاني العميقة الحاثة على الجد والاجتهاد، وترك التواني والكسل لبلوغ الاهداف الكبيرة.

كما حرص الكاتب فيها على انتقاء ألفاظه المناسبة بعناية، وصاغها في عبارات فصيحة قوية خالية من الركاكة والضعف، وقد التزم فيها بالسجع، فجاءت أسجاعه قصيرة ومتوسطة، وعذبة ورشيقة، كما أكثر من استخدام المحسنات البديعية الأخرى كحسن التقسيم والازدواج والطباق والجناس كما في قوله يصف النسر: «.... كأنما أجنحته ركبت من العواصف، واستلبت من البروق الخواطف، وأخذت من رمز الألفاظ، واستعيرت من غمز الألحاظ.... يقبض أجنحته ويبسط، ويصعد إلى السماء تارة ويهبط....»[1].

ونوع في أسلوبه بين السرد[2] والوصف الطويل[3]، والحوار[4]، وبين الأساليب الخبرية والإنشائية[5]، وضمّن قصته كثيراً من الأمثال والحكم[6]، كما زاوج فيها بين

---

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٤١-٣٤٢.

(٢) المصدر السابق: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٤٠-٣٤٢.

(٣) المصدر السابق: ج١: ص٣٤٥.

(٤) المصدر السابق: ج١: ص٣٤٧-٣٥٣.

(٥) المصدر السابق: ج١: ص٣٥٢-٣٥٣.

(٦) المصدر السابق: ج١: ص٣٤٥، ٣٥٢-٣٥٣.

النثر والشعر[1]، وخياله في هذه القصة واسع، فكل قصته من نسج الخيال، كما أنّ القصة جاءت حافلة بالصور البيانية كالتشابيه، والاستعارات، والكنايات، المستمدة من ثقافته الواسعة الدينية والأدبية والتاريخية، ومن بيئتيه الخاصة والعامة، وقد عمد فيها إلى تجسيم المعاني، وتشخيص الجماد والحيوان، وبالمشاهد المتكاملة مثل قوله في وصف الروض: « .... واطلع من رواشن أبراج السماء، على روض أريض، وظلٍّ عريض، وأنهار متدفقة، وأشجار مونقة، وطل منثور، وورد ومنثور، ومكان بهج، وزهر أرج.... قد صقلت بمصاقل القطر مرايا أزهارها، وعقدت لرؤوس أغصانها تيجان نوارها، وأكاليل جلنارها، ونشرت النسائم مطويات حللها من أسفاطها، ورقصت حور بناتها على سعة بساطها.... »[2].

---

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: انظر مثلا الصفحات: ٣٤٠ -٣٤٧.

(٢) المصدر السابق: ص٣٤٢.

obeikandl.com

obeikandl.com

المنامات

روى بعض الكتاب قصص الرؤى والأحلام، ولا سيّما ما يتعلق منها بكرامات الأولياء والصالحين، وقد أفرد أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» – كما رأينا – فصلاً كاملاً لهذه الأقاصيص، وهذا النوع من القصص معروف منذ أقدم العصور، وقد أسهم انتشار الزهد في شيوع هذا النوع من القصص وكثرته.

وكتب بعض الناثرين في هذا العصر نوعاً آخر من الرؤى عرف بالمنامات، والمنامة: قصة خيالية (بالمعنى الواسع للقصة القديمة) يقدمها الكاتب على أنها حلم شاهده في منامه.

وقد كتب الوهراني مناماً طويلاً ردَّ فيه على رسالة بعث بها إليه صديقه الحافظ العليمي[1] مطالباً إياه فيها «بالأوتار الهزلية بعد الزمان الطويل»[2]، وبعد أن غلب عليه النوم رأى مناماً تخيل فيه أنه نفخ في الصور، ونادى المنادي بالناس أن هلّموا إلى العرض على الله تعالى، فخرج الوهراني من جدثه، ويمم شطر الداعي الى أن بلغ أرض المحشر وقد ألجمه العرق، وأخذ منه التعب والفرق، فظهر له أحد أصحابه، وأخبره أن بعض الجواري يطلبنه مدعيات عليه أنه باعهن لغيره وهن حوامل.... وعندها تذكر بعض أقرانه الذين أغرقوا في الفواحش، وتصور هول ما سيحل بهم، ثم التقى صديقه صاحب الرسالة الحافظ العليمي الذي بادره بالشتم واللكم، لأنه خاطبه في رسالته السابقة باسمه، دون كنية أو لقب، فذكره الوهراني بما هم فيه من أهوال يوم القيامة، ولا سيّما أن مالكاً خازن النار كان يفتش على أهل الفاحشة من أمثالهما ويقتادهم مسلسلين إلى جهنم، ولكن صاحبه أصر على أن يقاضيه عند القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فيعرّض الوهراني بالشهرزوري وبمظالمه للعباد بعامة ولابن عصرون

---

(١) لعله المحدث والتاجر الدمشقي أبو الخطاب العليمي عمر بن محمد بن عبدالله الدمشقي المتوفى في سنة ٥٧٤هـ (شذرات الذهب: ج٤: ص٢٤٨).

(٢) منامات الوهراني: ص٢٣.

بخاصة، وبينما هو وصاحبه يتحاوران إذ هجم عليهما مالك خازن النار ورمى السلسلة على رقبتيهما وجرهما نحو النار لاقترافهما الفواحش في دنياهما، وبعد رجاء شديد منهما أطلقهما مالك، فصعدا إلى جبل الأعراف.. ثم التقيا بالمجد ابن أبي الحكم، الذي كان يحمل رقعة من المؤيد بن العميد إلى الملك رضوان، يطلب منه أشجاراً من الجنة، ليطعم بها أشجار بستانه في الدنيا، فعرّضا بأسلوبها، فانثنى ابن أبي الحكم عن عزمه في تقديمها لرضوان، ثم سمعوا ضجة عظيمة فإذا الناس مبتهجون، وعبد الرحمن بن ملجم المرادي[1]، والشمر بن ذي الجوشن الضبابي[2]، والحجاج بن يوسف الثقفي، وإبليس يرقصون ويلعبون، لأن الله غفر للفقيه المجير، والمهذب بن النقاش مع أنه «لم يولد في الاسلام مولود قط أرق ديناً من هذين الرجلين ولا أقل خيراً منهما»[3] فاستبشر الناس خيراً، وأملوا في عفو الله عن خطيئاتهم، فاهتبل الوهراني الفرصة ولحق بالمهذب بن النقاش – قبل أن يدخل الجنة ولا يعود يراه – مطالباً إياه بالعشرة دنانير التي كانت له بذمته، أو بما يعادلها من الحسنات، فسخر منه الحاضرون لعلمهم بأنه لا حسنة له، وأخبروه بأنه ما غُفر له إلاّ بشفاعة ملك الموت عزرائيل فيه، ومحبته له لأنه كان يساعده في قبض أرواح المرضى عند معالجته لهم، فاضطر الوهراني إلى مسامحته بدينه إكراماً لعزرائيل، ثم اشتدَّ العطش بالوهراني وصاحبه، وتعبا من المحاورة والوقوف، فاتجها نحو الحوض للشرب منه، فلقيهما أحد أصحابهما فرحاً بنجاته من النار لأنه كان يسرّ الأشعرية، ولم يتبع مذهب الحنابلة في التشبيه، ثم حاول الوهراني والعليمي الشرب من الحوض -- وعنده عليٌّ (كرَّم الله وجهه) وآله وأصحابه – مدعيين أنهما من أهل العلم والقرآن، فكشف أحد الحاضرين أمرهما فطردا عن الحوض، ثم أتى الرسول (ﷺ) في موكب عظيم وحوله آله

---

(١) رجل خارجي، قتل علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه)، فقتله أولاد علي سنة ٤٤هـ (ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير: ج ٣: ص٢١-٢٧).

(٢) من قتلة الحسين بن علي، طلبه المختار الثقفي بدم الحسين، فهرب من الكوفة وقتل سنة ٦٦هـ: (الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج٥: ص٤٥٠-٤٥٣، ج٦: ص٤٤-٥٥).

(٣) منامات الوهراني: ص٣٧.

وأصحابه « كأنهم الشموس والأقمار، ركبان على نجائب من نور يؤمون المشرعة العظمى من الحوض المورود »[1]، ولكنهما لم يستطيعا الوصول إليه من الزحام، فطلعا إلى جبل الأعراف يرقبانه، فشاهداه وقد أعرض عن الصوفية، ثم مسح على رأس صلاح الدين الأيوبي، ودعا له بالنصر والتأييد. ثم ذهبا فتشفعا بيزيد ابن معاوية فأرسل معهما كتيبة من الجيش الشامي ليرِدا عنوة الحوض المحمي من أنصار علي، فشربا منه ثم سمعا صيحة عظيمة حيث أقبل علي في جيشه، وأخذ الطرقات على الشاميين الذين جاؤوا معهما، فخرج الوهراني من جميع ما كان فيه، ووقع من على سريره، واستيقظ من نومه خائفاً مذعوراً، ولذة ذلك الماء في فمه، وطنين الصيحة في أذنه، ورعب الوقعة في قلبه « إلى يوم ينفخ في الصور »[2].

وقد استخدم الوهراني الألفاظ السهلة، المألوفة، والفصيحة غالباً والتي تشوبها العامية – أحياناً – مثل قوله: أنا رايح أردها عليه، خرب بيتك، بحياتي عليك لا تذكرها، مبحلق العينين، طير عقولنا، والمبتذلة والماجنة أحياناً أخرى[3].

وقد صاغها في عبارات سهلة بسيطة بعيدة عن التعقيد والتكلف غالباً، وقد استخدم في وصف حاله وشوقه عندما استلم رسالة صديقه العليمي في مقدمة منامه الأسلوب المسجع الحافل بالصنعة البديعية، ولكنه تخلى عنه عندما بدأ في وصف منامه، فلم يستخدم المحسنات البديعية إلاّ قليلاً كالسجع في قوله: وقد ألجمني العرق، واخذ مني التعب والفرق، وأنا من الخوف في أسوأ حال، وقد أنساني جميع ما أقاسيه، عظيم ما أعانيه من شدة الأهوال. والطباق في قوله: أما ترى الملائكة منحدرة من السماء إلى الأرض زرافات ووحدانا؟، وأوقفه بين الجنة

---

(١) منامات الوهراني: ص٤٧.

(٢) المصدر السابق: ص٦٠.

(٣) المصدر السابق: ص٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٨ وغيرها.

والنار، والاقتباس من القرآن الكريم مثل: ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة** ﴾[1]، و﴿ **لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ احصاها** ﴾[2]. والتضمين بالشعر مثل:

إذا كان الغراب دليل قوم فلا يعدو بهم طرق الخراب

ومثل:

لا تعجبنّ لخير إن أتاك به فالكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا[3]

وبالأمثال الفصيحة مثل: اذكر سعيدا ترهُ، واذكر الكلب، واستعد له بفهر[4]، والعامية مثل: حولا بحولا، ربة البيت أولى، عين لا ترى، قلب لا يحزن.

ويتسم أسلوبه بالاستطراد - أحياناً - مثل انتقاله من وصف ما هم فيه، عندما باغتهم مالك خازن النار، إلى الحديث عن الترخيم في النداء، الجائز عند جميع النحاة، ومثل تفسيره لمعنى كلمة الحوس في أثناء الحوار.

ويغلب الإطناب على أسلوبه مثل قوله في وصف الصوفية للرسول (ﷺ) عندما سأل عنهم: «هؤلاء قوم من أمتك، غلب العجز والكسل على طباعهم، فتركو المعايش، وانقطعوا إلى المساجد، يأكلون وينامون، فقال: فبماذا كانوا ينفعون الناس، ويعينون بني آدم ؟!، فقيل له: والله ولا بشيء البتة، ولا كانوا إلاّ كمثل شجر الخروع في البستان، يشرب الماء، ويضيق المكان....».

وقد جاءت معانيه في هذا المنام واضحة قريبة المنال، وقائمة على العبث والمجون والسخرية.

---

(١) سورة لقمان: الآية رقم (٢٨).

(٢) سورة الكهف: الآية رقم (٤٩).

(٣) في الأصل: ولا تعجب لخير ان أتاك به.. ولعل الصواب ما ذكرته.

(٤) الفهر: الحجر: (اللسان: مادة: فهر).

ومنامه هذا كله من نسج الخيال، وقد حفل بالصور البيانية كالتشابيه والاستعارات والكنايات المستمدة من ثقافته الدينية، مثل قوله: هذا اليوم هو اليوم العبوس القمطرير، ولا بُدَّ لك من الاجتماع بأبيك الغسل وأمك الهاوية، ولولا ما ظهر من تعصبك لأهل الشر، لطرت مع الملائكة إلى سدرة المنتهى. ومن ثقافته التاريخية مثل قوله: أقبل نجم الدين، وأسد الدين (يعني والد صلاح الدين الأيوبي وعمّه) راكبين على فرسين كالعقابين من خيل ربيعة، وعلى كل منهما خلعة الحج، وخلعة الجهاد، وقول معاوية لابنه: لا تبعث معهم ابن زياد.... ودماء بني أبيك في ثيابه، وسيفه يقطر منها الى الآن.

ومن بيئته مثل قوله: ولا كانوا إلاّ كمثل شجر الخروع في البستان...

كما جاء هذا المنام حافلاً بالمشاهد الحية المتحركة مثل قوله بعد أن شرب عنوة من الحوض الذي كان يحميه آنذاك رجال علي بمساعدة رجال معاوية: «... فبينا نحن في أطيب عيش وأهناه، وإذا بضجة عظيمة قد أقبلت، وزعقات متتابعة، وأصحابنا يهربون. فقلنا: ما لكم؟! فقيل: علي عليه السلام، قد أخذ الطرقات على الشاميين، وجاءنا سرعان الخيل فيها محمد بن الحنفية يزأر في أوائلها مثل الليث الهصور، فلما انتهى إلينا صاح بنا صيحة عظيمة هائلة أخرجتني من جميع ما كنت فيه، فوقعت من على سريري، فانتبهت من نومي خائفاً مذعوراً....».

وعلى الرغم من أنه نقلنا في منامه من الواقع الأرضي إلى يوم الحشر، إلاّ أنَّ معظم صوره، ومشاهده لم تخرج عن الصور والمشاهد في الحياة الدنيا.

بين منام الوهراني ورسالتي: الغفران[1] والتوابع والزوابع[2]:

جاءت هذه المنامة مثلهما رداً من الكاتب على رسالة بعث بها إليه صديقه الحافظ العليمي، طالبا لثأره منه لأنه خاطبه في رسالة له قبل ثلاث سنوات «بمجرد

---

(١) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران (طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت).

(٢) ابن شهيد الأندلسي: رسالة التوابع والزوابع (تحقيق ودراسة بطرس البستاني).

الاسم، وحذف جميع الألقاب»[1]، ثم انتقل الى وصف منام له، رأى فيه فيما يرى النائم أن القيامة قد قامت، فخرج من قبره، وسار حتى بلغ أرض المحشر، وقام برحلة خيالية في يوم العرض، وقد قصد مثلهما طرق عالم الأرواح.

ولم تخل رسالة التوابع والزوابع من بعض السخرية والتهكم، ورسالة الغفران تقوم في معظمها على التهكم والسخرية، وأما منامة الوهراني فتقوم كلها على الهزل والعبث والسخرية والمجون.

وقد صاغ كل منهم رسالته بأسلوب قصصي يغلب عليه الحوار، وأنطق كل منهم الملائكة أو الجن، وحاول أن يبهر صاحبه برده عليه.

وموضوع رسالة ابن شهيد يدور حول مجالس الأدب في زمانه، وزمان سابقيه حيث أنشد فيها شعره وقصائده، وموضوع رسالة الغفران يدور حول الشعر والعروض والموسيقى والنحو والصرف والأدب والنقد، أمّا موضوع الوهراني فيدور حول العبث والمجون، ومحاسبته هو وأصحابه وغيرهم على قبائح أعمالهم في الدنيا، ومع ذلك فقد اشتمل منامه على مسألة لغوية واحدة هي الترخيم في النداء حيث عرضها بسرعة وعلى رأي نقدي بسيط واحد على لسان أحد النحاة لأحد الأدباء.

وأشخاص ابن شهيد من الشعراء وتابعيهم من الجن، ومن الحيوان العاقل الناطق كبغلة أبي عيسى والإوزة.

وأشخاص رسالة الغفران من الشعراء واللغويين والنقاد والرواة، وبعض الملائكة، والرسول (ﷺ) وآله وصحبه، وحمزة وعلي (رضي الله عنهما)، ومن الحيوان العاقل الناطق كحية الفردوس والإوزة.

وأشخاص الوهراني: صديقه صاحب الرسالة الحافظ العليمي، وبعض أصدقائه الآخرين، وبعض معاصريه من الفقهاء والقضاة والنحاة والأدباء، والأطباء، وبعض

---

(١) منامات الوهراني: ص٢٢.

مجرمي الخلائق، وبعض الملائكة، والمتصوفة، وبعض الأيوبيين، والرسول (ﷺ) وآله وصحبه، وعلي (ض) وآله وأصحابه، ومعاوية وآله وأصحابه.

ومع أن كلاً من الثلاثة قد حاول إظهار براعته الأدبية في عمله الأدبي إلاّ أنَّ ابن شهيد هدف – أيضاً – إلى إظهار تفوقه على غيره من الشعراء وسعة خياله، وهدم خصومه وحساده، وهدف أبو العلاء المعري الى التهكم من ابن القارح والسخرية منه، وهدف الوهراني إلى العبث بصديقه صاحب الرسالة، والتماجن معه، والتعريض بعدد ممن لقيهم في حياته، أو ماتوا قبله، لما اجترحوه من قبائح الأعمال.

وقد جعل ابن شهيد من نفسه بطلاً لقصته، وقصر دور تابعه زهير بن نمير على تعريفه بالأماكن والأشخاص، وجعل أبو العلاء من ابن القارح بطلاً لقصته، وتوارى خلفه، يلقنه ما يريد قوله، ويحركه كما يشاء.

أمّا الوهراني: فقد جعل من نفسه بطلاً لقصته، واصطحب معه صديقه صاحب الرسالة، وجعل منه أحد أشخاص قصته العاديين.

وأسلوب ابن شهيد عذبٌ رشيق، وقد احتفى في رسالته بألوان من المحسنات البديعية، وبالصور البيانية، والمشاهد الحية.

أمّا أسلوب أبي العلاء فهو مُلغز بالألفاظ الغريبة، ومثقل بأصناف الصنعة البديعية المتكلفة، كما أنه حافل بالاستطراد الذي يمزق الموضوع الواحد، أو المشهد المتكامل من أجل تفسير لفظة، أو لإملاء فصل لغوي، ولا شك أن أبا العلاء، كان أوسعهم ثقافة، وأعمقهم فكراً، وأبرعهم تصويراً، وأكثرهم تكلفاً وصنعة وغموضاً في أسلوبه.

وأسلوب الوهراني – كما رأينا – سهل واضح خالٍ من التعقيد والتكلف، ومعانيه قريبة المنال، وصوره واقعية.

ومنامه بشكل عام مليء بالظرف والفكاهة والسخرية، ويمكن القول: إن

الوهراني قد تأثر برسالة الغفران في بعض الجوانب، ولكن لا يبدو أنه تأثر برسالة التوابع والزوابع بشكل واضح، وقد سلك الوهراني في هذا المنام الأسلوب القصصي، وقد تبدت فيه أركان القصة الخيالية إلى حدٍّ كبير التي تعتمد على العقدة، والحركة، والمفاجأة، والوقائع المثيرة، ووصف التفاصيل الدقيقة، ومناسبة الشخصيات للأدوار التي تقوم بها، وتسجيل ألوان من الحياة، ثم الوصول إلى الحل، والالتزام بوحدة المكان ووحدة الزمان، فموضوعه – كما رأينا – عبارة عن منام رهيب شاهد فيه جوانب من يوم الحشر، فيها وصف دقيق وتصوير بارع لمواقف أشخاص المنام من ذوي الفواحش والخطايا، وهول المشهد، وعنصر المخاطرة، واضحان جداً بالنسبة للوهراني وأشخاص منامه الخاطئين، فعندما يستبد بالوهراني الظمأ يفكر في الشرب من الحوض المورود، ثم يستمر جاهداً في محاولاته بشتى الشفاعات والحيل، ولكنه يمنى بالفشل في محاولاته ويذاد عن الحوض مراراً، وفي ذلك أكثر من عقدة، ثم تتدرج الأحداث الى العقدة الرئيسة، فيصر على الشرب من الحوض على الرغم من حماية أنصار علي له من الخاطئين، حتى كاد أن يثير معركة جديدة بين أنصار معاوية وعلي مثل معركة صفين في الدنيا. والقارىء مشفق من هذا الصدام، ومتشوق إلى انفراج هذا المأزق الذي انتهى باستيقاظ الوهراني من نومه مذعورا.

وهذا ما يسمى بالحركة في القصة وما يكتنفها من أحداث مثيرة تؤدي إلى العقدة ثم إلى الحل.

وقد جاءت العقدة في هذه القصة محبوكة الى حدٍ ما، والانتقال واضح الحركة – غالباً – والعرض متتابع، والقصة حافلة بالمفاجآت، والوقائع المثيرة، التي لا تلبث أن تنتهي بنهاية مناسبة، وقد جعل الوهراني أرض المحشر مسرحاً لأحداث منامته، ويوم العرض زماناً لها.

وقد امتازت هذه المنامة بكثرة أشخاصها، وتصويرها لجانب من حياة أصحاب العبث والمجون والفكاهة ولجوانب من الصراع بين أنصار معاوية وعلي، كما نوَّع

المؤلف فيها بين أسلوب السرد القصصي والوصف الدقيق للمشاهد الحيّة المتحركة، والحوار الدائب، واستعمل في معظمها الأسلوب السهل البسيط واللغة المفهومة والعبارات الدارجة مما جعلها في مستوى القصص الفكاهية الطريفة.

* * * *

وظهرت إلى جانب هذه الحكايات، والأقاصيص، والقصص، والمنامات، والمقامات، المكتوبة باللغة الفصحى قصص شعبية مثل «السيرة الهلالية»[1]، ومثل «ألف ليلة وليلة»، التي تضمنت بعض القصص التي تعكس صوراً من الصراع الذي كان جارياً بين المسلمين والفرنج - آنذاك - مما يدل على أنها كتبت في هذا العصر مثل قصة «علي نور الدين المصري مع مريم الزنارية»[2] وحكاية «الصعيدي وزوجته الإفرنجية»[3].

---

(١) يرجح الدكتور شوقي ضيف أن هذه القصة ألفت في القرن السابع الهجري أو بعده في القرن الثامن (تاريخ الادب العربي: عصر الإمارات: (مصر والشام): ص٤٨٦: طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤).

(٢) ألف ليلة وليلة في الكتاب المسابع: ص١-٣ (تحقيق الأب أنطون صالحاني اليسوعي: طبعة المطبعة الكاثوليكية، بيروت).

(٣) المصدر السابق: الكتاب السابع: ص٤-٧ (الليلة: ٨٩٥).

obeikandl.com

obeikandl.com

المقامات

تعني المقامة في اللغة: المجلس، أو الجماعة من الناس[١]، أو السادة من الرجال، أو العظة، أو الخطبة تقال بين يدي أمير[٢]، أو الأحدوثة من الكلام[٣].

وقد اختلف الباحثون المحدثون في تعريف المقامة، فقد اعتبرها زكي مبارك قصة قصيرة[٤] ووصفها محمد زغلول سلام بأنها مزيج من فني القصة والرسالة[٥]، وغير ذلك[٦].

وقد حظيت مقامات الحريري[٧] – آنذاك – باهتمام الأدباء والكتّاب بها، إذ كانت إحدى ركائز أهل ذلك الزمان من متعاطي صناعة الانشاء[٨]، لما تحويه من ثروة أدبية ولغوية، فظفرت هذه المقامات بشروح كثيرة منها: المطول في شرح المقامات لمحمد بن ظفر الصقلي (-٥٦٥هـ)[٩]، وشرح جيد للغاية لصفي الدين

---

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة (قوم).

(٢) الزمخشري: أساس البلاغة: ج٢: مادة (قوم).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ج١٤: ص١٢٤.

(٤) زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع: ج١: ص٢٤٢.

(٥) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي ص١٨٠.

(٦) كمال اليازجي: الأساليب النثرية في الأدب العربي القديم: ص١٢٩، وفكتور الكك: بديعات الزمان: ص٤٨.

(٧) هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري، ولد في حدود سنة (٤٤٦هـ/١٠٥٤م) في البصرة ونشأ وتعلم اللغة والأدب والفقه فيها، ثم قلّد الحريري الهمذاني في المقامات، فانشأ خمسين مقامة، بالغ فيها في التأنق، وفي استخدام الصنعة البديعية المتكلفة، وتوفي في البصرة سنة (٥١٦هـ/١١٢٢م) وله مؤلفات مشهورة منها: «درة الغواص في أوهام الخواص»، «وملحة الإعراب»، «وشرح ملحة الإعراب» وغيرها (معجم الادباء: ج١٦: ص٢٦١-٢٩٣).

(٨) ضياء الدين بن الأثير: الوشي المرقوم: ص٥٠-٥١.

(٩) السيوطي: بغية الوعاة: ج١: ص١٤٢-١٤٣.

عبدالكريم البعلبكي (-٦٠٠هـ)[١]، وشرحان لأبي محمد القاسم بن القاسم الواسطي (-٦٢٦هـ)[٢].

ولم يكتف الأدباء بشرحها بل كتب بعضهم في الرد عليها، فألف عبدالله بن أحمد بن الخشاب (-٥٦٧هـ) كتاب «الرد على الحريري في مقاماته»[٣] وكتب بعضهم الآخر مقامات جديدة، فصنّف ملك النحاة الحسن بن أبي الحسن الصافي (-٥٦٨هـ) كتاب «المقامات» «الذي هو من جنس مقامات الحريري، وكان يقول مقاماتي جدٌّ وصدق، ومقامات الحريري هزلٌ وكذب»[٤].

وثبت عن القاضي الفاضل أنه شرع في معارضة المقامات، إذ عارض فيها كل فصل بفصل أحسن منه[٥].

إلاّ أنّ هذه الشروح، وتلك المقامات لم تصل الينا، ولكن وصلتنا بضع مقامات لركن الدين محمد بن محرز الوهراني منها:

مقامته عن صقلية[٦]:

وقد وصف فيها دخوله إلى صقلية في أحد الأيام الخالية، فعشق الإقامة فيها، ثم حضر يوماً مجلساً في أحد بساتينها ضمَّ طائفةً من الفقهاء والأدباء، وفيهم الأديب البليغ أبو الوليد القرطبي، فسألوه عن رأيه في أعيان البلد مثل القاضي ابن رجاء، وأبيه وابنه، والفقيه ابن بقية، والكاتب يوسف وابنه وأخيه، فأجابهم على ذلك بأسلوب سهل ظريف يطغى عليه الهزل والمرح، ومنها قوله: «.... فقلنا له (أي لأبي الوليد القرطبي): ما تقول في القاضي ابن رجاء؟ قال: مصباح دجى،

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون: ج٢: ص١٧٨٩.

(٢) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات: ج٣: ص١٩٢-١٩٦.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٢: ص٥٢.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٦٨.

(٥) ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب: ص٤٦١.

(٦) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص٢١٩-٢٢١.

وشيخ علم وحجى، وهو بيت القضا، وكلمة حكم وعدل ورضا، نزَّهَ نفسه عن الرشا والولائم، فلا تأخذه في الله لومة لائم، غير أنه عظيم الشقشقة، كثير البقبقة[1]، بسيفه على الخصمين، ولو أنهما ملكان[2]، ويضيع أوقات الصلاة، ويمنع يواقيت الصلات، لايرثى للغريب، ولا يتوجع، ولا يوسي ولا يسأل ولا يتفجع، فنكب عن ذراه (فلأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه).

قلت: فما تقول في الشيخ أبيه، قال: كان - رحمه الله - يتناعس على الخصمين، فلا يوقظه إلاّ سلسلة الكفين، ولو قبضت على أنفه بالكلبتين.... قلت: فما تقول في ولده؟.

قال: ابن لبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب...»[3].

ثم عرض بالكاتب يوسف وولده وأخيه.

أما مقامته في شمس الخلافة:

فقد نقل فيها عن راوية هذه المقامة عيسى بن حماد الصقلي أنه عندما ضعف المسلمون بصقلية انتقل منها إلى دمشق، فرأى في الحي الذي يقطنه رجلاً شديد التّيه بنفسه، ثقيل الظل يدعى شمس الخلافة، فسأله الراوية عن مولده ومنشئه، فادعى أنهما كانا في ما وراء النهر، ولكنه انتقل إلى الشام، واستقرَّ بها، فلم يقتنع بجوابه، وسأل أحد معارفه عنه، فأخبره بأنه رجل مغربي جاهل، وأنه جاء للحج وهو معدم فحاول أن يكتري بيتاً من عجوز مغربية ثرية كانت تعلم البنات الغزل، فأعجبت به وتزوجت منه في الحال، وحاولت أن ترفع من شأنه، فاشترت له ملابس الفقهاء، وطلبت منه أن يغشى مجالس العلماء ويدعي العلم والفقه، قائلة له: « ... أريد ان أخرجك من المدابر وأضعك على رؤوس المنابر،

---

(١) البقبقة: كثرة الكلام أو الكلام المخلط (اللسان: مادة: بقق).

(٢) في الأصل ملكين.

(٣) منامات الوهراني: ص٢١٩-٢٢٠.

فأحضر ذهنك، وأحضر لهذا الدرس أذنك، اعلم أن الألف قائم كالمغزل، وهو كباب المنزل، والباء كالصنارة، أو كرجل المنارة، والهاء كالثقالة، وفيها شيء كالعرقالة، والطاء كالخف أو كطارة الدف، وكل مدور ميم، وكل معوج جيم، والصاد تشبه نعالك، والذال تشبه قذالك[1]. فاحفظ هذا الكلام وقد أصبحت مفتي العراق والشام.... فأقبل التّيس يكرر لفظه، حتى أجاد حفظه، وعندها خرج في القمة والعمة، وعزم على مدرسة جمال الأئمة، فخرجت تبخره من العين وتقرأ عليه المعوذتين» وفي الصباح ذهب إلى المدرسة مرتدياً لباس الفقهاء، فأجلّه الحاضرون، ظناً منهم أنه من أهل العلم والفقه، «حتى جاء وقت المناظرة، فحينئذ برز بالوجه الوقاح والإفك الصراح، فأرهج المدرسة بالصياح، وأخذ يقول نوعاً من الهذيان، وضرباً من الباذنجان، فوقع الناس في البلاء، وعلموا أنه دلو من الدلاء، وتحققوا أن الرجل كالسطل، لا يصلح إلا للاصطبل، فخرجت هيبته من صدورهم، ونبذوه وراء ظهورهم...» فترك مجالس العلم والعلماء، ثم كثرت أمواله وحاشيته وأعوانه، فتغير على زوجته «بعد أن كان يفديها بمهجته، وصار يجري بينهما في المجالس، ما يحفظ عنهما في المدارس....»[2].

وأما مقامته البغدادية:

فقد قال في مطلعها: «قال الوهراني، لما تعذرت مآربي، واضطربت مغاربي[3]، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي، فما مررت بأمير إلاّ حللت ساحته، واستمطرت راحته.... فتقلبت بي الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار.... فقصدت مدينة السلام، لأقضي حجة الإسلام.... فأرحت نفسي من سلوك الغور والفج، وجلست أنتظر أيام الحج، فتاقت نفسي إلى معاشرة العقلاء واشتاقت إلى محادثة الفضلاء.... فدلني بعض

---

(١) القذال جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق القفا (اللسان: مادة: قذل).

(٢) منامات الوهراني: ص٩٧-١٠٢.

(٣) اضطربت أموري وأحوالي في المغرب.

السادة الموالي على دكان الشيخ أبي المعالي[1]، وقال: هو بستان الأدب، وديوان العرب، يرجع إلى رأي مصيب، ويضرب في كل علم بنصيب، فقصدت قصده، حتى جلست عنده، وسألني عن حالي، وعن طريق انتحالي، فقلت: إني رجل غريب، وعهدي بالسفر قريب...» ثم سأله عن موطنه، وعن رأيه في دولة الملثمين (المرابطين)، ودولة الموحدين، وعن الدولة الفاطمية، وكيف آلت مصر للأيوبيين، وعادت للخلافة العباسية، ثم عن رأيه في السلطان نور الدين محمود، وفي خليفة ذلك العصر، ووزيره، فأجابه على هذه الأسئلة، ثم استشار الوهراني أبا المعالي في مقابلة ذلك الوزير، واستماحته، فشجعه على ذلك، ثم أشاد بأهل بغداد، ولا سيما صاحب الديوان فيها الذي أغناه بكرمه عن الآخرين[2].

خصائصها الفنية:

لا نستطيع من خلال هذه المقامات القليلة أن نحكم على خصائص المقامات كلها في هذا العصر، ولكن يمكننا أن نستخلص منها مدى التطور الذي أصاب هذا الفن آنذاك.

لم يعد موضوع المقامة مقصوراً على الكُدية والاحتيال، بل شمل عند الوهراني موضوعات أُخرى مثل النقد الاجتماعي اللاذع تارة لبعض النماذج الإنسانية البغيضة، التي يصورها تصويراً بارعاً بما عرف عنه من حدة الطبع، وفرط الإحساس، ولذع السخرية، وإظهار براعته الأدبية، وثقافته التاريخية تارة أخرى.

فقد عرّض الوهراني في مقامته عن صقلية ببعض النماذج من القضاة مثل ابن

---

(١) ربما كان أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم الأنصاري الحظيري المعروف بدلال الكتب، وكان يعمل بالوراقة وكان أديباً، عارفاً بعدد من علوم عصره، وله نظم رقيق في الغزل والخمر والمجون، وقد توفي في بغداد سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، وله مؤلفات عديدة منها: زينة الدهر وعُصرة أهل العصر، ولمح الملح، والإعجاز في الأحاجي والألغاز وغيرها (معجم الأدباء: ج١١: ص١٩٤-١٩٧).

(٢) مناامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص١٠-١٦.

رجاء الثرثار الغافل عن مواعيد الصلاة، القاطع للصلات بين الناس، وغير المبالي بالآم الناس ومصائبهم، وأبيه الذي كان يتناعس في مجلس القضاء، فتختلط عليه أمور الخصمين، ويلتبس عليه الحق، وابنه الذي كان لا يرتجى لنفع، كما عرض ببعض الكتاب مثل الكاتب يوسف وولده أبي علي وأخيه أبي الفتوح.

وللوهراني قدرة كبيرة على السخرية والتندر والفكاهة، فقد سخر في مقامته عن شمس الخلافة سخرية لاذعة بنموذج إنساني آخر، شديد التيه بنفسه، ثقيل الظل مدّع للعلم والفقه، وعراقة النسب، مع أنه غبي جاهل من أصل وضيع.

أمّا في مقامتة البغدادية، فقد صوَّر لنا حاله في مغتربه ببغداد، فحاول إبراز ثقافته الأدبية والتاريخية وسعيه المتواصل لاستماحة ممدوحيه.

ولم يعد – أيضاً – ظهور البطل والراوية المحددين في المقامة تقليداً ثابتاً، فقد روى الوهراني نفسه ما جرى في مقامته عن صقلية، ولم نجد فيها وفي غيرها بطلاً واحداً لها، بل ظهر في هذه المقامة أبو الوليد القرطبي متحدثاً وناقداً لبعض الناس في ذلك المجلس، أمّا في مقامته عن شمس الخلافة، فقد جعل الوهراني راويتها عيسى بن حماد الصقلي، وجعل بطلها شمس الخلافة نفسه، الذي قدّمه –كما رأينا– في صورة بغيضة مثيرة للسخرية والاحتقار والضحك، خلافاً لصورة البطل في مقامات السابقين الذي يتصف بالفصاحة والبلاغة، فهو شاعر وناثر وخطيب، وناقد وفقيه ومتكلم محيط بشتى فنون اللغة والأدب والدين، حاضر البديهة سريع الارتجاز، ويمتاز بالذكاء وسعة الحيلة، وخفة الظل، وقد تأصلت الكدية في نفسه حتى أصبح رمزاً للمكدي الماكر المحتال.

وأمّا في مقامته البغدادية، فقد جعل الكاتب من نفسه بطلا لمقامته وراوية لها في آن واحد، وقد ظهر فيها أديباً مثقفاً يسعى لمقابلة العلماء والأدباء، ومادحاً لذوي الجاه والسلطان، ومستميحاً لهم بصورة مباشرة تخلو من الحيلة.

ولم يغفل الوهراني الناحية الثقافية في مقاماته، فهدف إلى جانب الإطراف والنقد الاجتماعي إلى إشاعة جو تعليمي ثقافي كما في وصفه للدولة الفاطمية،

ولدولتي الموحدين والمرابطين[١]، وللخليفة العباسي، مثل قوله:

« . . قد جمع الله فيه من الفضائل والوفاء، ما فرقه في سائر الخلفاء فكأنه السفاح في حزمه وعزمه، والمهدي في دولته وصولته، والرشيد في سياسته ورياسته، والأمين في سخائه وانتخائه، والمأمون في حلمه وعلمه، والمعتصم في شهامته وصرامته . . . . »[٢].

ولم تجيء المقامة عنده قصة قصيرة محبوكة جيداً تتدرج أحداثها نحو العقدة ثم إلى الحل، ويحتال بطلها للوصول إلى هدفه في الكدية، بل جاءت مجلساً حوارياً في المقامة عن صقلية، وحديثاً قصصياً في مقامته عن شمس الخلافة، وفي مقامته البغدادية.

وقدم الوهراني مقاماته بأسلوب بارع رشيق خفيف الظل، حافل بالسخرية والتعريض والعبث في مقامتيه عن صقلية وعن شمس الخلافة، كما لم تخل مقامته البغدادية من السخرية والعبث عند وصفه لدولة الموحدين، ولحال الدولة الفاطمية قبيل سقوطها.

وقد استخدم في معظم مقاماته الألفاظ الفصيحة السهلة المألوفة، ولكنها لم تخل -أحياناً- من بعض الألفاظ العامية التي تقرب المقامة من الواقع مثل: سال عليه ريالها يا جيافه، كثير البقبقة، ففضّل من يستحق وعيّب، فجاء هذ الشيخ أبو . . يطلب عندها بيتاً للكرا، ومن بعض الألفاظ الغريبة بالنسبة لنا أبناء العصر الحاضر -أحياناً أخرى- والتي ربما دعاه إليها حرصه على السجع والجناس، مثل: القلفندر[٣]، وتتقنبع، واللوالك[٤]،والشماشك[٥]، والجاندار[٦].

---

(١) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص١٠-١٤.

(٢) المصدر السابق: ص١٥.

(٣) لم أجد لها معنى في المعاجم.

(٤) اللوالك: لم اجد لها معنى ولعلها نوع من الأحذية الخفيفة.

(٥) الشماشك: زي من ملابس الرعاة (DOZY : TOME I : P.787) .

(٦) الجاندار: حارس ذات الملك (أدي شير: الألفاظ الفارسة المعربة: ص٤٦).

واتسم أسلوبه بالإطناب مثل قوله: « .... فسار ذكرهم في الأقطار، وانثال عليهم ذوو الأخطار، فقصدهم الملك والمملوك، وانتابهم الغني والصعلوك، فوهبوا البلاد والتلاد، وفرقوا المال والأعمال حتى أخجلوا البحار، وفضحوا بجودهم الأنهار، فاشتدت بهم شوكة الموحدين، وخمدت نيران المشركين....»(١).

ونوَّع في أسلوبه - كما رأينا - بين السرد والوصف والحوار، وأساليب الخبر والإنشاء(٢)، ورصع أسلوبه بالاقتباس من القرآن الكريم مثل: ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾(٣)، و﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون** ﴾(٤)، و﴿ **ذرية بعضها من بعض** ﴾(٥) و﴿ **ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، ورفع أباه على العرش** ﴾(٦)، و﴿ **تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾(٧).

وبالتضمين بالأمثال الفصيحة، مثل: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» و«لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب» و«ألقيت حبلي على غاربي».

وبالأمثال العامية، مثل: «حلو اللسان بعيد الإحسان»، و«سال عليه ريالها».

وبالأبيات الشعرية، لأنه كان يكمل نثره بالشعر، مثل:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد(٨)

---

(١) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص١٤.

(٢) المصدر السابق: انظر الصفحات: ص١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٦.

(٣) سورة الأنفال: الآية رقم (٣٧).

(٤) سورة الرعد: الآية رقم (٣٥).

(٥) سورة آل عمران: الآية رقم (٣٤).

(٦) سورة يوسف: الآية رقم (٩٩).

(٧) سورة إبراهيم: الآية رقم (٢٥).

(٨) ديوان طرفة بن العبد: ص٢٩.

ومثل:

فلم تك تصلح إلاّ له ولم يك يصلح لا لها[1]

كما التزم في مقاماته بالأسلوب المسجوع الذي طبع به بديع الزمان الهمذاني المقامة العربية، وجاءت معظم سجعاته قصيرة، ومتوسطة، وخاضعة للمعنى، ومنقادة إليه، تتفق مع ما ذهب إليه ضياء الدين بن الأثير في السجع[2].

وأكثر من استخدام الجناس، والازدواج، وحسن التقسيم، كما في قوله: قال مصباح دجى، وشيخ علم وحجى، يضيع يواقيت الصلاة، ويمنع مواقيت الصلات، وبعد علي غوره، وأشكل علي أمره، سهم للدولة سديد، وركن للخلافة شديد، أكرم من الغيث الهامر، وأشجع من الليث الخادر، فوثب عليهم وثبة الليث الكاسر، وسطا بهم سطوة البطل الباسر...

كما استخدم الطباق والمقابلة، مثل: الطول والعرض، وغريب ونسيب، ويأخذه ويدعه، ويرفعه ويضعه، فصارت القاهرة كجنة النعيم، وكانت كالبقعة السوداء في سواء الجحيم.

وقد استمد معانيه من ثقافة عصره الدينية والأدبية والتاريخية، ومن بيئتيه الخاصة والعامة، ولا سيما أنه لم يتقلد منصباً رفيعاً، بل عاش بين عامة الناس، فجاءت معانيه عادية وواضحة وتقليدية معروفة تكاد تخلو من الجدة والابتكار.

وكان الوهراني فناناً بارع الوصف فاعتنى عناية كبيرة بالوصف الدقيق، وبالصورة الأدبية، وهي تتمثل عنده - غالباً - بالصور البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات مستمدة من ثقافته الدينية والأدبية واللغوية والتاريخية، مثل قوله: وجنة أبدع غارسها.... «كمثل الجنة التي وعد المتقون»، هلك طالوتها

---

(١) ديوان أبي العتاهية: ص٣٧٥.

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: انظر ص٢٧١-٢٧٥، ٢٧٧، ٣٣٣-٣٣٧.

فاختلت، وانقرض جالوتها فاعتلت، وألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي، وهو بستان الأدب، وديوان العرب، فضرب زيد عمرا، وقتل خالد بكرا، فاستعانوا عليه بالأسود والأحمر، والملوك من بني الأصفر، فكأنه السفاح في حزمه وعزمه، والمنصور في بذله وعطائه.... أو مستمدة من بيئته ومشاهداته، مثل الدرس الحافل بالصور البيانية المضحكة الدالة على الجهل والغباء الذي ألقته الزوجة على شمس الخلافة في تعليم الحروف العربية، ومنه: «اعلم أن الألف قائم كالمغزل، وهو كباب المنزل، والباء كالصنارة، أو كرجل المنارة، والهاء كالثقالة، وفيها شيء كالعرقالة، والطاء كالخف أو كطارة الدف، والصاد تشبه نعالك، والذال تشبه قذالك....».

ومثل قوله: وهو من ورائها كالثور، وعلموا أنه دلو من الدلاء، وتحققوا أن الرجل كالسطل لا يصلح إلاّ للاصطبل.

وقد يؤلف الوهراني – أحياناً – بين الصور البيانية الجزئية فيقدمها في مشهد حواري حي متكامل رشيق مثير للسخرية والضحك والاحتقار، كما في وصفه للحوار الذي جرى بين شمس الخلافة وزوجته: «فلما أصبح قال لها: يا هذه، اعلمي أني كنت في بلدي إسكافا، وأصبحت اليوم في مرحاضك كنافا، فكيف لي بالمدارس، وأنا كالطلل الدارس؟! ومن أين لي الخير، وأنا مثل حمار العزير؟! والله ما أفرق بين الحروف، وبين قرون الخاروف! فقالت: أنا أعلمك العلم كله إلاّ أقله، وأعلمك فصلاً في التدريس تغلب به محمد بن إدريس[1] فقال لها: يا هذه، والله ما أرجو من المدرسة نفعاً، وإني اخاف أن يقتلوني صفعاً، فدعيني من اقتحامك وإقحامك، فقالت: أريد أن أخرجك من المدابر، وأضعك على رؤوس المنابر، فأحضر ذهنك، وافتح لهذا الدرس أذنك....»[2].

---

(١) هو الإمام محمد بن إدريس بن العباس الشافعي، ولد سنة ١٥٠هـ، وقدم مصر سنة ١٩٨هـ، توفي سنة ٢٠٤هـ وهو أحد أصحاب المذاهب السنية الأربعة (ياقوت: معجم الأدباء: ج١٧: ص٢٨١-٣٢٧).

(٢) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص٩٩-١٠٠.

السيرة

هي كما يقول عبد الكريم الأشتر: ما يترجمه الأدباء «لحياتهم وحياة أعلامهم من رجال الأدب والفكر والسياسة، إذ يجمعون الوثائق التي تتصل بها، فيصنفونها ويدرسونها دراسة دقيقة يتمثلون فيها هذه الحياة قائمة في ظروفها من الزمان والمكان، ويرصدون نموها ومراحل تطورها، ثم يكتبون قصتها من جديد»(١).

ويقرب من ذلك قول مها العطار: هي «قصة واقعية جرت حوادثها في الماضي، ولكنها تسترجع من الذاكرة ليعاد تمثيلها على مسرح الحياة، فكأن كاتبها يعيش تلك الحياة مرة أخرى، فيتقمص شخصية البطل ويشعر بشعوره، ويحس بأحاسيسه، وربما رأى بعينيه أحداث حياته من خلال الوثائق، أو من خلال قصص استمد وقائعها من أهله وأصدقائه ومعاصريه ليجسم تلك الحياة، وينفخ فيها الروح لتمثل بإتقان، مراعيا في ذلك أطري الزمان والمكان، وتطور البطل ونموه»(٢).

والسيرة نوعان: السيرة الذاتية، والسيرة الموضوعية.

وقد اختلف الباحثون العرب المحدثون حول تسمية السيرة الذاتية، فمنهم من سمّاها السيرة الذاتية أو الترجمة الذاتية(٣)، ومنهم من سمّاها الترجمة الشخصية(٤).

وهي – كما يقول إحسان عباس –: «تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا ما بلغت هذه التجربة دور النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من القلق الفني، فإنه لا بُدَّ أن يكتبها»(٥).

---

(١) عبد الكريم الأشتر: فنون النثر المهجري: ص١٨٠.

(٢) مها العطار: السيرة الفنية في الأدب العربي: ص١٣-١٤ (رسالة جامعية).

(٣) إحسان عباس: فن السيرة: ص٩١.

(٤) شوقي ضيف: الترجمة الشخصية: ص٥-٦.

(٥) إحسان عباس: فن السيرة: ص٩٥.

أو هي– كما تقول مها العطار– «قصة حياة شخص ما كتبها بقلمه، فسرد لنا فيها ترجمة حياته، وحدّثنا عن دخائل نفسه وتجاربه، ليثير فينا الرغبة في الكشف عن عالمه المجهول، وهي الزبدة التي تمخضت خلال سنين طويلة من حياة أديب ما أودعها تجاربه، ومآسيه وأفراحه»[١].

والسيرة الذاتية هي جزء أو أجزاء من قصة حياة فرد أو مجموعة من تجاربه الإنسانية كتبها بأسلوبه الخاص للتأكيد على عقيدة يعتنقها أو فكرة يعتقد بها، أو تجارب يعرضها لنشاركه في قناعاته ومشاعره.

وقد عرف الأدب العربي قديماً عدداً من السير الذاتية[٢]، وفي العصر الذي نكتب عنه، وجدت ملامح من السيرة الذاتية، ذات الطابع الإخباري المحض في «مياومات القاضي الفاضل، والعناصر الذاتية في كتب الرحالة كرحلة ابن جبير... وموفق الدين البغدادي» كما يذكر إحسان عباس[٣].

وألف أُسامة بن منقذ كتاب «الاعتبار» بعد أن تخطى التسعين، وأورد فيه تجاربه وملاحظاته المختلفة على شكل مذكرات ذاتية، وجعله في ثلاثة أبواب هي:

الأول: حروب وأسفار[٤]: يقع في ١٦٨ صفحة، وهو – على الرغم من فقدان إحدى وعشرين ورقة من أوله – أطول الأبواب، وأكثرها شمولاً لحياته الخاصة، ولحالة عصره العامة، حيث عرض فيه بطريقة غير مباشرة – من خلال الحوادث التي مرت به في حياته – صوراً من الحضارتين الإسلامية والصليبية في بلاد الشام – آنذاك – ثم ختم هذا الباب بمديحه لصلاح الدين.

الثاني: نكت ونوادر[٥]: يقع في ٢٠ صفحة، ويتحدث فيه عن أخبار

---

(١) مها العطار: السيرة في الأدب العربي: ص٤٨.

(٢) انظر مثلاً: شوقي ضيف: الترجمة الشخصية: ص١٢ – ٣٠، وإحسان عباس: فن السيرة: ص١١١–١٣٠.

(٣) إحسان عباس: فن السيرة: ص١١٤.

(٤) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١–١٦٧.

(٥) المصدر السابق: ص١٦٩-١٨٨.

الصالحين وكراماتهم، وعن الشفاء بطرق غريبة.

الثالث: أخبار الصيد[1]: يقع في ٣٧ صفحة، ويتحدث فيها عن مشاهداته للصيد والجوارح بشيزر في فجر حياته، ثم في الموصل ودمشق ومصر وحصن كيفا، فقد حضر قتال الأسود في مواقف كثيرة، وقتل -كما يقول-: عدة منها لم يشاركه «أحد في قتلها»[2].

وقد مكنّته مشاهداته الكثيرة للصيد من معرفة بعض طبائع الحيوان[3].

ومما رواه أسامة في هذا الكتاب وصفه لأسلوب تربيته منذ حداثته، إذ كان أبوه يربيه على الشجاعة والإقدام، إذ يقول: «.... مرة كنت معه (مع والده) - رحمه الله - وهو واقف في قاعة الدار، وإذا حيّة عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار، فوقف يبصرها. فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحيّة وصعدت إليها، وهو يراني فلا ينهاني وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي، وطرحتها على رقبة الحيّة وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع، وجعلت أحزُّ رأسها - وخرجت ألتفت على يدي - إلى أن قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار، وهي ميتة.

بل رأيته - رحمه الله - وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر[4]، فلمّا وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها، فحمل على الخيل، ثم وقف، وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ - رحمه الله - بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي - رحمهما الله - ومعهما جماعة من الجند، والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدره على الأرض ويهدر، فحملت عليه، فصاح علي أبي - رحمه الله - لا تستقبله يا مجنون، فيأخذك! فطعنته، فلا والله ما تحرك من مكانه،

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٩١-٢٢٧.

(٢) المصدر السابق: ص١٤٤.

(٣) المصدر السابق: ص١٠٦-١١٢، ٢١٧-٢١٨، ٢٢٤-٢٢٥.

(٤) يعني جسر شيزر.

ومات في موضعه. فما رأيت الوالد نهاني عن قتال غير ذلك اليوم»[١].

وكتاب الاعتبار من أقدم الكتب في السيرة الذاتية عند العرب، وقد توفرت فيه معظم مقومات هذا الفن كالأمانة في الحديث، والصدق في القول غالباً فيما يتصل بحياته، وتصوير الحياة بمواقفها وأشخاصها تصويراً حياً بارعاً، والقدرة على استحضار الوقائع الماضية بأسلوب سهل بسيط مشوّق ينوّع فيه بين السرد والوصف والحوار، والأساليب الإنشائية، فضلاً عن دقة الملاحظة، والبراعة في إيراد النكتة بأسلوب قصصي ممتع[٢].

وقد استعمل أسامة اللهجة المحكية في بلاد الشام، متخلياً عن المحسنات البديعية والتكلف وعن أسلوبه الرفيع في مؤلفاته الأخرى، وفي دعائه لصلاح الدين في نهاية الباب الأول من الكتاب[٣].

وهو يتوقف – أحياناً – عن سرد قصصه ليلقى بالعبرة التي اكتسبها من مجموعة متجانسة من القصص[٤]، وأحياناً أخرى يقدم العبرة ثم يسرد القصص التي تبرهن على صحتها[٥].

واستعمل أسامة في كتابه الكلمات الإفرنجية[٦] والفارسية[٧]، والتركية[٨]، واليونانية[٩] المعربة، التي كانت قد ألفتها الآذان، وقبلتها الأذواق آنذاك.

ومما يؤخذ على هذه السيرة أن المؤلف لم يرتب مذكراته في «الاعتبار»

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٠٣–١٠٤.

(٢) انظر مثلا المصدر السابق: ص١٣٢–١٣٣، ١٣٥–١٣٨.

(٣) المصدر السابق: الاعتبار: ص١٦٤–١٦٦.

(٤) المصدر السابق: ص٩٠.

(٥) المصدر السابق: ص١٥٤.

(٦) المصدر السابق: ص٥١، ٦٧.

(٧) المصدر السابق: ص٥٢، ١١٧ وغيرهما.

(٨) المصدر السابق: ص١٠١، ١٠٦ وغيرهما.

(٩) المصدر السابق: ص٥٧، ١٠٩ وغيرهما.

ترتيباً زمنياً وإنما كتبها في شكل أخبار وحكايات وقصص من هنا وهناك وكان يستطرد فيها من موضوع إلى آخر ولكنها مع ذلك تتصل بحياته ورحلاته وحروبه وعلاقاته بالخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وغيرهم منذ فجر حياته حتى أصيلها.

ووردت في الكتاب أخطاء نحوية وصرفية[١]، وألفاظ وعبارات عامية[٢].

كما أنه نقل أخبار كرامات الأولياء ومناقبهم، وحكايات الرؤى والأحلام، كما سمعها دون تحقيق أو مناقشة.

وهدف أسامة من هذا الكتاب، وما فيه من حكايات - كما يقول فيليب حتي-[٣] إلى عظة أراد أن يرسخها في ذهن القارئ وهي الإيمان بالقضاء والقدر «وأن الله مقدّر الأقدار، وموّقت الآجال والأعمار» فيجب أن لا يظنَّ ظانٌّ «أن الموت يقدمه ركوب الخطر، وتؤخره شدة الحذر»، ويرى في طول عمره ونجاته من الموت أكبر مصداق لرأيه، وأعمق عظة للعاقل[٤]، وأن «النصر في الحرب من الله - تبارك وتعالى - لا بترتيب أو تدبير، ولا بكثرة نفير ولا نصير»[٥].

وربما هدف من التركيز على هذا الأمر إلى دفع المسلمين إلى الجهاد، وقتال الفرنج الغزاة دون خوف أو وجل، ولا سيما أن صلاح الدين كان - آنذاك - يعد العدة ويجمع الجيوش لتحرير الأرض المقدسة من أيدي الفرنج، فأراد أن يشارك في الجهاد بكتابه هذا بعد أن أصبح هرماً وعاجزاً عن مباشرته بنفسه.

وللكتاب - كما رأينا - قيمة أدبية كبيرة فهو من كتب السيرة الذاتية المشوّقة النادرة في التراث العربي القديم، حتى قال فيه فيليب حتي: «بين كتب الأدب العربي سير عددها غير قليل.... ولكنها كلها تتضاءل أمام سيرة أسامة بقلم

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٢٢، ٧٥، ١٧٧ وغيرها.

(٢) المصدر السابق: ص٤٤، ٥١ وغيرهما.

(٣) فيليب حتي: مقدمة الاعتبار: ص هـ.

(٤) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١٦٢-١٦٣.

(٥) المصدر السابق: ص١٤٧.

نفسه»[1] وقال فيه إحسان عباس «ولا أعرف لهذا الكتاب ضريباً في نوع المتعة التي ينقلها إلى القارئ، وفي البساطة المتناهية التي يتلقاه بها....»[2].

وقال فيه عباس حسن «... سيظل الاعتبار من أعظم الكتب التي أنجبتها قريحة الإنسان تشويقاً وإمتاعاً»[3]. وفي الحقيقة إن كتاب الاعتبار أشهر كتاب في السيرة الذاتية في أدبنا القديم، وأكثرها تشويقاً وإمتاعاً، ومن أبسطها لغة، وأسلسها أسلوباً.

وعرف العرب - أيضاً - السيرة الموضوعية منذ أن كتب ابن إسحاق (-١٥٢هـ) سيرة النبي (ﷺ). وفي العصر الأيوبي كتب القاضي بهاء الدين بن شداد سيرة صلاح الدين الأيوبي في كتاب سمّاه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وجعله في قسمين:

الأول: يقع في ٣٠ صفحة، ذكر فيه مولده، وخصائصه وخلاله[4]، فذكر أنه ولد في قلعة تكريت سنة ٥٣٢هـ، ثم تحدث عمّا شاهده من مواظبته على القواعد الدينية، وملاحظته للأمور الشرعية، فكان -رحمه الله- حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى، «مواظباً على الصلاة مع الجماعة وعلى السنن الرواتب»، وعند موته «لم يحفظ ما وجبت عليه الزكاة »لأن صدقة النفل قد استنفدت جميع أمواله، وأما الصوم فقد كانت «عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة.... ولم يزل يصوم حتى قضى ما كان عليه»[5].

وكان محباً لسماع القرآن العظيم، والحديث الشريف وقراءتهما، معظماً لشعائر الدين، مبغضاً للفلاسفة، والمعطلة والدهرية، ومعاندي الشريعة، حسن

---

(١) فيليب حتي: مقدمة الاعتبار: ص ن.

(٢) إحسان عباس: فن السيرة: ص١٢٨.

(٣) عباس حسن: أسامة بن منقذ: ج٢: ص٧٣.

وانظر أيضاً: جمال الدين الألوسي: أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية: ص١٠٥.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٥-٣٤.

(٥) المصدر السابق: ص٨.

الظن بالله تعالى منيباً إليه، وكان «عادلاً، رؤوفاً، رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي....» كريماً «يعطي في وقت الضيق، كما يعطي في حال السعة..» وكان محباً للجهاد «عظيم الاهتمام به»[1].

الثاني: يقع في ٢١٤ صفحة: تحدث فيه عن أحواله ووقائعه وفتوحاته[2]، فبيّن دور صلاح الدين في حملات عمّه أسد الدين شيركوه الثلاث إلى مصر، ثم ذكر وفاة أسد الدين وانتقال الوزارة في مصر من بعده إلى صلاح الدين، وإلغاءه للخلافة الفاطمية فيها، وضمّه مصر لسلطنة نور الدين محمود، وللخلافة العباسية، ثم ما قام به من أعمال في مصر، ثم فتحه اليمن، ثم توليه للسلطنة في مصر والشام بعد وفاة نور الدين محمود، ثم وصفه لغزواته للإفرنج في عين جالوت والكرك ثم لمعركة حطين الحاسمة سنة ٥٨٣هـ وما تلاها من استيلائه على معظم الساحل الفلسطيني، ثم فتحه العظيم لبيت المقدس، ثم مواجهاته المتتالية للفرنج بعد أن تدفقت إليهم النجدات من أوروبا، ثم وصفه لحصارهم الطويل لعكا ولاستيلائهم عليها، وغدرهم بأهلها، وفتكهم بهم، ثم فشل الفرنج في استرداد بيت المقدس ثم إتمام الصلح بين صلاح الدين والفرنج سنة ٥٨٨هـ، ثم عودته لدمشق ووفاته فيها سنة ٥٨٩هـ.

وهكذا فقد أشاد ابن شداد في القسم الأول من هذه السيرة – كما رأينا – بصفات صلاح الدين الخلقية الرفيعة، ثم اهتم في القسم الثاني بالمعارك الحربية التي خاض غمارها منذ عودته إلى الشام في سنة ٥٨٢هـ حتى وفاته، ورتبها ترتيباً زمنياً دقيقاً، فجاءت هذه السيرة تاريخاً لحياة هذا البطل المسلم الذي استطاع أن يواجه الغزاة الفرنج ويهزمهم، ويحرّر بيت المقدس والمسجد الأقصى المبارك، ومعظم الساحل الشامي المحتل منهم.

وقد استطاع ابن شداد أن يصوّر شخصية بطله وعواطفه ومشاعره، وأن يسبر

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١، ٧–١٣.

(٢) المصدر السابق: ص٣٥–٢٤٨.

غوره، من خلال ما أورده من قصص وحكايات ومشاهد فقد كان – أحياناً – يقدم الصفة ثم يأتي بشاهد عليها، ومن ذلك قصة الأسير الفرنجي الطاعن في السن الذي أطلق صلاح الدين سراحه(١).

وكان يقدم – أحياناً – الحكاية كشاهد ثم يستخلص منها الصفة المناسبة، ومن ذلك قصة الرضيع الذي سرقه لصوص مسلمون من خيام الفرنج، فجاءت أمه إلى صلاح الدين وأخبرته بقصتها، فأمر بالبحث عنه ولم يغادر مكانه حتى أعيد الرضيع إلى أمه، ثم أمر بحملهما على فرس وإلحاقهما بعسكر الفرنج(٢).

وكان – أحياناً أخرى – يقدم المشهد ويترك للقارئ أن يستخلص بنفسه ما يضطرم في قلب هذا البطل من مشاعر، كما في قوله في وصف حال صلاح الدين عندما اتضح له ما حل بأهل عكا من ضعف، وما ينتظرهم من أهوال عندما زحف الفرنج لاحتلالها: «... فلمّا علم السلطان ذلك، ركب وركب العسكر بأسرهم، وجميع الراجل والفارس، ووعدهم ورغبهم، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر عليهم، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم بين الجانبين، وهو – رحمه الله – كالوالدة الثكلى يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد.... وينادي بنفسه: «يا للإسلام» وعيناه تذرفان الدمع، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم، اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة....»(٣).

وعلى الرغم من إعجاب ابن شداد العظيم بمناقب بطل سيرته وجهاده، حتى أنه تمنى عند وفاته أن يفتديه بنفسه(٤)، إلاّ أن هذه السيرة امتازت بالأمانة العلمية والصدق، والدقة إلى حد كبير والبعد عن التزيد والمبالغة، لأن كاتبها

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٥٦.

(٢) المصدر السابق: ص١٥٨-١٥٩.

(٣) المصدر السابق: ص١٦٦.

(٤) المصدر السابق: ص٢٤٦.

كان رجلاً تقياً ونزيهاً، وقد عيّنه صلاح الدين قاضياً لعسكره في سنة ٥٨٤هـ، فظل ابن شداد ملازماً له منذ ذلك التاريخ حتى وفاته، فشاهد بنفسه معظم الحوادث التي رواها أو سمعها ممن يثق فيه من الرواة، وفي ذلك يقول: « . . رأيت أن اختصر من ذلك (أي مما شاهده من حياة صلاح الدين) على ما أملاه علي العيان، أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الإيقان. . . . »[١].

أمّا اذا لم يشاهد الحادثة بنفسه فكان يشير إلى ذلك مثل قوله عن وقعة الرمل: « . . . . وهذه الوقعة لم أحضرها، فإني كنت مسافراً، وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلي، وعرفت الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور »[٢].

وقد صوّرت هذه السيرة حياة سلطان ملتزم بمثل الإسلام وقيمه العليا، وبطل مجاهد من أعظم أبطال المسلمين، استطاع أن يحرّر بيت المقدس ومعظم فلسطين وسواحل بلاد الشام من الإفرنج، وأن يصد هجماتهم اللاحقة، وقد توفرت فيها من خصائص السيرة الموضوعية – كما رأينا – محاولة سبر غور البطل، وتحليل نفسيته، وتعليل أعماله وتصرفاته، للوصول إلى حقيقة خلاله وشمائله، والقدرة على استحضار الوقائع الماضية وتصويرها بأسلوب سهل بسيط، خال من الغرابة والتعقيد، والتصنع البديعي الذي كان سائداً في عصره، مما جعلها من أشهر السير الموضوعية في أدبنا القديم.

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٤.

(٢) المصدر السابق: ص١١٦.

obeikandl.com

الرسائل

ازدهرت في هذا العصر كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية والأدبية.

الرسائل الديوانية:

ارتقت دواوين الإنشاء في هذا العصر، وأحكم تنظيمها، ولا سيّما ديواني الإنشاء في دمشق والقاهرة، فقد علا شأن ديوان الإنشاء في دمشق في عهد نور الدين محمود، ثم في عهد الأيوبيين من بعده، وتولى رئاسته أو عمل فيه أدباء مشهورون مثل: عبدالله بن أحمد بن الحسين بن النقار الدمشقي (-٥٦٨هـ) أو ٥٦٩هـ)[١]، وأبي اليسر شاكر بن محمد التنوخي المعري الدمشقي (-٥٨١هـ)[٢]، والعماد الكاتب الأصفهاني(-٥٩٧هـ)[٣]، وجمال الدين عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي (-٦٢٥هـ)[٤]، كما تولى ضياء الدين بن الأثير (-٦٣٧هـ) الوزارة والكتابة للملك الأفضل علي بن صلاح الدين حتى تنحيته عن ملك دمشق في سنة ٥٩٢هـ[٥].

وكان ديوان الإنشاء في القاهرة مزدهراً في زمن الدولة الفاطمية، وتولاه مشاهير الكتاب آنذاك، وعندما تولى صلاح الدين الأمر في مصر جعل القاضي الفاضل (-٥٩٦هـ) وزيره ومستشاره وكاتبه، ثم كتب الفاضل بعده لابنه الملك العزيز عثمان، ولأخيه الملك العادل أبي بكر[٦]، وتولى الأسعد بن مماتي

---

(١) هو أبو محمد عبدالله بن أحمد بن الحسين بن إسحاق النقار، ولد بطرابلس سنة (٤٩١هـ)، ونشأ وتأدب فيها وعندما غزاها الإفرنج ارتحل منها، واستوطن في دمشق، ثم تولى ديوان الإنشاء فيها، وكان جيد النثر، وله نظم مقبول، وتوفي في سنة ٥٦٨أو ٥٦٩هـ (العماد الكاتب: خريدة القصر :قسم شعراء الشام:ج١: ص٣١٤-٣١٥، وابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق:ج٧: ص٢٧٧).

(٢) العمادالكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام:ج٢ :ص٣٤-٣٥.

(٣) معجم الأدباء: ج١٩: ص١١-٢٩.

(٤) كمال الدين الأدفوي: الطالع السعيد: ص٣٠٥، وابن شاكر: فوات الوفيات: ج٢: ص٣١٢.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان:ج٥: ص٣٨٩-٣٩٧.

(٦) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء مصر: ج١: ص٣٥.

(-٦٠٦هـ) نظارة الدواوين[١]. وممن تولى رئاسة ديوان الإنشاء - أيضاً - البهاء زهير (-٦٥٦هـ)[٢] وإبراهيم بن لقمان (-٦٩٣هـ)[٣].

وقد صنّف بعض هؤلاء الكتّاب مؤلفات عديدة في صناعة الكتابة والإنشاء، مثل كتاب «قوانين الدواوين» لأسعد بن مماتي الذي جعله في خمسة عشر باباً، وتناول في الباب الاول منه: «فضل الكتابة والكتاب، وما جاء في ذلك من الآيات المحكمات والأخبار المرويات، وذكر جماعة من كان يكتب للأنبياء من الأنبياء عليهم السلام، ونعت أسماء من كان متسماً بها من كتّاب الخلفاء، وعلماء الإسلام...» وما يجب «على الكتاب ولهم، وإشارة إلى ما يكمل به في الخدمة تأدبهم إلى ما يتعلق بذلك ويتصل...»[٤] وذكر في الباب الثامن أسماء المستخدمين «حملة الأقلام» وما يلزم كلا منهم[٥]، واستعرض في التاسع المعاملات السلطانية، والجهات الديوانية[٦]، وتحدث في الثالث عشر عن أقسام الكلام المنثور، وفي الرابع عشر عن أنواع الورق التي كان يحتاج إليها الكتاب آنذاك[٧]، وتحدث في الأبواب الباقية عن أمور مصر الأخرى.

وكتاب «معالم الكتابة ومغانم الإصابة» لابن شيث القرشي الذي جعله في ثمانية أبواب، وتحدث فيه عن آداب كتّاب الملوك وأركان الدولة[٨] وعن طبقات التراجم، وافتتاحات الكتب وأصول التخاطب بين المتكاتبين[٩]، ووضع الخط

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج١: ص٢١٠-٢١٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٢: ص٣٣٢-٣٣٨، والبداية والنهاية: ج١٣: ص٢٢٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٣: ص٣٣٧.

(٤) أسعد بن مماتي: قوانين الدواوين: ص٦١-٦٩.

(٥) المصدر السابق: ص٢٩٧-٣٠٦.

(٦) المصدر السابق: ص٣٠٧-٣٥٧.

(٧) المصدر السابق: ص٥٨.

(٨) ابن شيث القرشي: معالم الكتابة: ص٩-٣١.

(٩) المصدر السابق: ص٣٢-٥٢.

وحروفه، وبري القلم ومسكه[١]، وعن البلاغة وما يتصل بها[٢]، وعن الألفاظ التي يسد بعضها مقام بعض[٣]، والأمثال التي يحتاج إليها الكاتب[٤]، وعن الأخطاء التي يجب أن يتحرز الكاتب من السقوط فيها[٥].

وألف ضياء الدين بن الأثير كتاب «المفتاح المنشا لحديقة الإنشا» وجعله في مقدمة وبابين، وقد تحدث في المقدمة عن منزلة الإنشاء، ثم بيّن الصفات الرفيعة التي يجب أن يتحلى بها الكاتب[٦]، ثم تحدث في الباب الأول عن مراتب الكتب والمخاطبات، وكيفية وضع الأسماء، وأين محلها[٧]، وتكلم في الثاني على الأدعية التي تصدر بها الكتب، ثم شرح فيه المصطلحات التي وردت في الكتاب، ثم ختمه بأبيات شعرية في أغراض مختلفة تصلح للتمثل بها في أثناء الكتابة[٨]، وألف كتاب «الوشي المرقوم في حل المنظوم» الذي حل فيه أبياتاً شعرية وآيات قرآنية كريمة وأخباراً نبوية شريفة.

وألف كتاب «الأمثال»[٩]، وكتاب «الأخبار النبوية» الذي جمع فيه أكثر من ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية[١٠]، وكتاب «الأدعية المائة المختارة»[١١] لكي يستفيد منها الكتاب في صناعة الإنشاء.

وازدهرت الكتابة الديوانية، وعلا شأنها كثيراً حتى قال فيها ضياء الدين بن

---

(١) ابن شيث القرشي: معالم الكتابة: ص٥٢-٦١.

(٢) المصدر السابق: ٦١-٨٥.

(٣) المصدر السابق: ٨٥-١٠٤.

(٤) المصدر السابق: ١٠٥-١٣٠.

(٥) المصدر السابق: ص١٣١-١٩٢.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص١٤-١٦.

(٧) المصدر السابق: ص١٧-٢٠.

(٨) المصدر السابق: ٢١-٥٥.

(٩) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص٦١-٦٢.

(١٠) ضياء الدين بن الأثير: الوشي المرقوم: ص٢٦، ٥٠.

(١١) حقق بقاياه د. هلال ناجي، ونشره مع كتاب «المفتاح المنشا لحديقة الإنشا».

الأثير: « . . . . إن أشرف صناعات الممالك وأسناها، وأفضل درجات المملكة وأعلاها، وأميز رتبها وأبهاها منازل الإنشاء الجامعة للأشياء الذي له قوام الملك وضبط قواعده، والكف لكف النسيان لساعده، وهو لها اليد اليمنى التي بها الأخذ والعطاء، والمنع والإمضاء، والبسط والقبض، والفصل والفض، والسر والجهر، والنهي والأمر، وهو على كل حال أسّ النظام، وحفظ الأنام . . . »(١). واشترطوا أن يتحلى الكاتب الناجح بصفات رفيعة ومثل عليا(٢).

وقد تنوّعت المكاتبات الديوانية آنذاك، فشملت كل شؤون الدولة الداخلية والخارجية مثل التوقيعات، والمنشورات، والمبايعات والأيمان، وكتب الجهاد والنفير والاستنجاد، والفتوح والعهود والمواثيق والتقاليد وغير ذلك.

أمّا التوقيعات فقد قلّ اهتمام مؤرخي الآداب في هذا العصر بإيرادها في كتبهم، فلم أجد منها إلاّ القليل النادر، ومن ذلك ما كتبه نور الدين محمود على رقعة رفعت اليه بأن تاجراً موسراً قد مات، وترك ثروة تقدر بعشرين ألف دينار أو تزيد، وليس له سوى ولد واحد عمره عشر سنوات، واقترح في الرقعة أن تضم تلك الثروة إلى بيت المال، حتى يكبر هذا الطفل فيرضى بجزء منها فقط، ويضاف الباقي إلى بيت المال، فوقع نور الدين: « أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله »(٣).

ومنها ما وقعه صلاح الدين الأيوبي على رقعة، رفعها اليه عماد الدين بن زنكي(٤) صاحب سنجار(٥) يطلب منه فيها الإذن له بالعودة مع جيشه إلى

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص١٤، وانظر أسعد بن مماتي: قوانين الدواوين: ص٦١-٦٩. وابن شيث: معالم الكتابة: ص٩.

(٢) الأسعد بن مماتي: قوانين الدواوين: ص٦٦-٦٩، وابن شيث القرشي: معالم الكتابة: ص٩-٢٣، وضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص١٤-١٥.

(٣) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق١: ص٣١.

(٤) عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكي، صاحب سنجار ونصيبين والخابور، كان دينا خيرا إلاّ أنه كان شديد التعصب على مذهب الشافعي، يكثر من ذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم، وقد توفي سنة ٥٩٤هـ (ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٩١).

(٥) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة الفراتية (معجم البلدان: ج٣ :ص٢٦٢).

إمارته، وكانت رسل الفرنج متواترة بينهم وبين صلاح الدين في أمر الصلح، فوقع صلاح الدين في ظهرها:

من ضاع مثلي من يديـــــه فليت شعري ما استفادا»(١)

ومنها ما وقع به صلاح الدين على رقعة للقاضي الفاضل يستأذنه فيها بالذهاب إلى الحج، فكتب بخطه: «على خيرة الله - تعالى - يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً(٢)».

ومع أن صلاح الدين كان «يجلس للعدل كل اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء.... وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل.... ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه....»(٣)، إلا أنه لم يصلنا منها شيء.

وتمتاز هذه التوقيعات القليلة بأنها موجزة، ومن جوامع الكلم، وتحول قلتها بيننا وبين الحكم على هذا الفن حكماً موضوعياً دقيقاً.

أمّا الرسائل الديوانية الأخرى، فقد ازدهرت كثيراً، ومن أمثلة منشورات ذلك العصر، المنشور الذي أسقط بموجبه نور الدين جميع المكوس والضرائب عن أهل الموصل عندما استولى عليها سنة ٥٦٦هـ، طلباً لرضاء الله، وقناعة بالمال الحلال، وتخفيفاً عن الرعية، ومنه: «... وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فسحقاً للسحت، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا الرب، ويقصي من محل القرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة، في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبة.... وإطلاق كل ما جرت العادة

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٤٦.

(٢) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج٢: ص٧

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية. ص١٣.

obeikandi.com

بأخذه من الأموال المحظورة، خوفاً من عواقبها الرديئة المحظورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً، ولا عمل لا يكون به الله راضياً، إيثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل....»[1].

ومن كتب الاستنجاد والدعوة إلى النفير والحرب الكتاب الذي أرسله صلاح الدين إلى ملوك الأطراف داعياً إياهم إلى الجهاد، والمشاركة في مواجهة الإمدادات الصليبية المتدفقة من الغرب، ومنه: «... والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين ثائرهم، وتخريب عامرهم، وما دام البحر يمدهم، والبر لا يصدهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين؟! وما ينقضي عجبنا من تضافر المشركين، وقعود المسلمين، فلا ملبي منهم لمناد، ولا مشفق لمنآد!! فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا ؟! وأي حشد حشدوا؟! وأي ضالة نشدوا؟! وأي نجدة أنجدوا ؟! وأية أموال غرموها وأنفقوها؟!.... والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا، وكسلوا ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء الحمية من الأقاصي والأداني على أنا بحمد الله لنصره راجون، وله بإخلاص السر وسر الإخلاص مناجون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون....»[2].

ومن كتب التهاني بالفتوح والنصر المشهورة ما كتبه القاضي الفاضل[3]، والعماد الكاتب[4]، وضياء الدين بن الأثير[5] من كتب عند فتح بيت المقدس على يدي صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببغداد، وما كتبه الملك الناصر داود

---

(١) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٧٩-٤٨٠.

(٢) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج٢: ص١٤٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٤٩٠-٥٠٢.

(٤) المصدر السابق: ج٦: ص٥١٥-٥١٩.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص١٤٩-١٥٦ (تحقيق المقدسي).

عندما فتح بيت المقدس ثانية إلى الخليفة في بغداد[١].

ومنها أيضاً ما كتبه الفاضل من دمشق إلى صلاح الدين مهنئاً له بالنصر في معركة حطين، وواصفاً له مدى ابتهاج المسلمين بذلك، فقد غمرتهم مشاعر الفرح والسرور، فخروا لله ساجدين شاكرين على هذه النعمة الكبرى، وفاضت عيونهم سروراً وابتهاجاً، ومنه « . . . ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم، وأنه - كما قيل - أصبحت مولاي، ومولى كل مسلم، وأنه قد أسبغ عليه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيا وملك الاخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها، وكلما فكّر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه إن الله ثالث ثلاثة، يقال اليوم فيه أنه الواحد، جدد لله شكرا، تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جفنه، وجزى يوسف[٢] خيراً عن إخراجه من سجنه . . . . »[٣].

وقد حفلت كتب الفتوح والتهاني والحرب والنفير والجهاد - كما رأينا - بالعواطف الحارة الصادقة التي كانت تمور بها صدور كتابها تجاه هذه الحوادث الجليلة، خلافاً لما يراه الدكتور عمر موسى باشا بأن هذا النوع من النثر « يعتمد أكثر ما يعتمد على الوصف الدقيق، وإبراز كل صغيرة وكبيرة، ويبدو أنه يفتقر إلى الحرارة العاطفية، وينقصه الشعور الذاتي، ويتضاءل فيه الإنفعال النفسي، وهي التي نجدها في بحث النثر الذاتي »[٤].

---

(١) عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة: تاريخ مدينة دمشق: ص٢٢٦-٢٣٣.

وقد درس هذه الرسائل كثير من الباحثين منهم: عبداللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية: ص١٧٥-١٩٤، وعمر الساريسي: نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية: ص٦٥-٧٨، وعبد الجليل عبد المهدي: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ص٣٣٢-٣٧٨، وحلمي عبد الفتاح: أصداء الحروب الصليبية في أدب القاضي الفاضل: ص٢١٠-٢١٥.

(٢) يعني صلاح الدين يوسف.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٨٢-٨٣.

(٤) عمر موسى باشا: أدب الدول المتتابعة: ص٧٩٩.

ومن كتب التقاليد ما كتبه ضياء الدين بن الأثير إلى أحد الولاة على لسان الملك الأفضل علي بن صلاح الدين بولاية دمشق، حيث افتتحه بحمد الله على نعمه، والصلاة على نبيه محمد، ثم عدد مصاعب الإمرة، وصوَّر جسامة مسؤولياتها، ثم أشاد بصفات هذا الوالي الحميدة، ثم ذكر ما لا يخفى عليه من واجبات رعيته عليه كالأناة والصدق والرأفة والرفق بها، والبعد عن البطش أو فاحش القول عند الغضب، ثم حثّه على التواضع، وقضاء حقوق المسلمين عليه.... ثم بيّن أن هناك أموراً لا بُدَّ من التأكيد عليها، فقال: « إلا أن ها هنا ما لا بد من تحرير ذكره، وتقرير أمره، والخروج من عهده، والبلاغ في حمل إصره، ونحن فيما نذكره على المعذرة محمولون، وقد جعلناه حجة بيننا وبينك يوم يقال: ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾[1] ».. ثم طلب منه أن يحكم بين رعيته بالعدل، ثم أوصاه بأهل الذمة خيراً، فعليه أن يعاملهم بالعدل، وأن يحفظهم في نفوسهم وأعراضهم وأموالهم، وأن يترك لهم حرية العبادة، وأن يحسن السيرة فيهم ثم أوصاه بالاهتمام بفقراء المسلمين وتوزيع الصدقات عليهم في مواعيدها دون تأخير أو مطال فقال: « فحال الفقراء أرق من أن يضيق الرزق عليهم بتعويقه، وهي كالثوب الخلق الذي يغلب صاحبه بتمزيقه، وصاحب العافية يغتر بالسهول والحزون، والدعة والسكون، ومن لم تظمأ كبده، ولا جاعت بطنه، لم يدر ما ظمأ الأكباد وجوع البطون ». ثم دعاه إلى محاربة داء الرشوة الوبيل والمرتشين فقال: « وها هنا كبيرة هي من أعظم الكبائر، وقد فشت في الناس حتى صارت صغيرة من الصغائر، وذاك أن ولاة السوء قد ألفوا تناول الرشوة التي تغير حكماً، وتختم على القلوب ختماً، وسماها الله سحتاً وإثماً.... فاحص على هؤلاء الأنفاس عددا، واسلك بين أيديهم ومن خلفهم رصدا، وكن كالطائر الذي يظن كل شيء حجرا ويدا » ثم دعاه إلى الاكتفاء بجمع الأموال من الرعية من الأبواب الحلال فقط، ثم ختم التلقيد بالدعاء قائلاً: « والله تعالى ينظمنا في سلكه، ويطهرنا وأعمالنا من شائبة الرياء التي هي معدودة في شركه، ويجعلنا

---

(١) سورة الصافات: الآية: رقم (٢٤).

من صالحي الملوك، حتى نكون ممن صلح في نفسه وملكه...»[1].

التقويم الفني:

بنية الرسالة الديوانية:

تتكون الرسالة الديوانية من مقدمة وعرض وخاتمة، فكان كتاب هذا العصر كسابقيهم يفتتحون رسائلهم إذا كانت صادرة من الأداني إلى الأعالي بالبسملة «تبركاً بالابتداء بها، وتيمناً بذكرها»[2]، لقول رسول الله (ﷺ): «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع»[3].

أمّا إذا كانت الرسائل صادرة «من الأعالي إلى الأسافل، فإنه يجوز أن تستفتح بأي شيء من أسامي الرب سبحانه وتعالى»[4]. ثم يتبعون البسملة بحمد الله - تعالى- امتثالاً لقوله (ﷺ): «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم»[5].

ويرى ابن الأثير أن تكون «التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب»[6]، وكان بعض الكتاب يستحسنون تكرار التحميد، وأن يكون ذلك - كما يقول ابن شيث -: «... بحسب النعمة المكتوب بسببها من فتح أو نحوه»[7].

ثم تُبدأ الرسالة بعد ذلك بمقدمة مناسبة ممهدة للموضوع الرئيس، لأنها ركن

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٥٧-١٦٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٢١٤.

(٣) المصدر السابق: ج٦: ص٢١١، واقطع: ناقص البركة (صبح الأعشى: ج٦: ص٢١١).

(٤) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا. ١٧٠.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٢١٥.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٣: ص١٠٨.

(٧) ابن شيث: معالم الكتابة: ص٤٨.

من أركان الكتابة الديوانية» ولا يحسن بالكاتب أن يُخلي كلامه – وإن كان وجيزاً من مقدمة يفتتحه بها....»[١]، ومن أركان الكتابة – أيضاً – أن يكون مطلع الكتاب «عليه جدة ورشاقة، فإن الكاتب من أجاد المقطع والمطلع»[٢]، فجرت سنة الكتاب في جميع الكتب كالفتوح والتهاني والتعازي على ذلك، ويجب أن تكون المقدمة «مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض»[٣].

وقد تعددت أساليب الكتاب في افتتاحات الرسائل ومنها:

الدعاء للمخاطب: وقد غلب هذا الافتتاح على مقدمات أكثر الرسائل حتى أن ابن الأثير ألّف للمتدربين على صناعة الإنشاء كتاباً كاملاً سماه «الأدعية المائة المختارة» ضمنه مائة دعاء «لا يخلو كل دعاء منها من معنى آية، أو خبر نبوي أو بيت شعر سائر أو مثل عربي، وربما اجتمع في أحد الأدعية الثلاث»[٤]، كما قصر فصلاً كاملاً من كتابه «المفتاح المنشا لحديقة الإنشا» على الأدعية التي تفتتح بها الرسائل[٥]، ليستعملها كتاب الرسائل الديوانية، ولينسجوا على منوالها. واشترط ابن الأثير في الدعاء أن يكون «مشتقاً من المعنى الذي بني عليه الكتاب»[٦]، دالاً على المقصود به.

وإذا كانت الرسالة موجهة للخليفة أو للديوان العزيز، يكون الدعاء فيها «بما فيه معنى دوام العز والسلطان، وبسط الظل، وما أشبه ذلك»[٧]، ويقرن الدعاء بمدح الخليفة، والإشادة بمآثره على المسلمين، ومن ذلك قول ابن الأثير في رسالة كتبها معارضاً لرسالة القاضي الفاضل للديوان العزيز بمناسبة وقعة حطين، وفتح

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٢٦٧.

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٢١.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٢٦٨.

(٤) ضياء الدين بن الأثير: بقايا كتاب الأدعية المائة المختارة: ص٥٩.

(٥) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص١٧-٣٩.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٢١.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٤٨٩.

طبرية: «أدام الله سلطان الديوان العزيز النبوي، وجدد عهود الإسلام في عصره، وعضده منه بسيف عمره، ورأي عمره، وأعاد بدولته ما مضى من غرة دهره، وجعل مآثرها نجوم ليله وشمس نهاره وطلعة فجره، ولا زالت الأقدار تهيئ لأوليائه في كل يوم مطلباً، وتجدد لهم من أسباب السعادة مركباً، وترى كلاً منهم من بركات خدمتها ما يقول معه ﴿**إني رأيت أحد عشر كوكباً**﴾[1]، هذه البشرى سائرة إلى الأبواب العزيزة مجدها الله، ولم تأت حتى انتظمت صدورها بغرر الجياد.... وكتابها يروي خبر النصر الغريب، في الحديث الصحيح، ينقله مسنداً عن أقلام الأسل وورق الصفيح....»[2].

أما إذا كانت الرسالة موجهة إلى غير الخليفة، كالسلاطين أو الأمراء أو الملوك فيكون الدعاء فيها حسب ما يناسب المخاطب من الألقاب: كالمقام، أو المقر، أو الجناب، أو المجلس السامي، ومثال ذلك قول ابن الأثير في مقدمة كتاب كتبه إلى أحد الأمراء: «أعلى الله محل المجلس السامي الحسامي، ورفع مجده فوق السحاب، وجعل كيد أعدائه إلى تباب، ولا أحوج شبيبة جدّه إلى خضاب، وكتب له عمراً لا يعدّ بحساب، وفداه بالقوم الذين لا يستأذن لهم على حجاب، وسيّر ذكره على أجنحة الرياح لا على ظهور الركاب، وخصه بالمساعي التي تدرك بعفوها جهد الطلاب، وإذا سوبقت مسح منها خدود سابقة عراب....»[3].

وقد تفتتح الرسالة بآية كريمة مناسبة للموضوع، فقد افتتح الكتاب كثيراً من رسائلهم – ولا سيما رسائل الجهاد – بالآيات المناسبة، ومن أمثلة ذلك افتتاح القاضي الفاضل للرسالة التي بعث بها على لسان صلاح الدين إلى نور

---

(١) سورة يوسف: الآية رقم (٤).

(٢) رسائل ابن الأثير: ص٦٦ (تحقيق القيسي وناجي)، وانظر أيضاً المصدر نفسه: ص٧٠، ٧١، ٧٣، ورسائل ابن الأثير: ص١٧، ٢٠، ٢١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥٧، ٢٨٤ وغيرها (تحقيق المقدسي).

(٣) رسائل ابن الأثير: ص٣١ وغيرها: (تحقيق المقدسي).

الدين محمود مبشراً بانتصاره على الفرنج في غزة سنة ٥٦٦هـ بالآية: ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم** ﴾[١].

أو أن تبدأ المكاتبة بخطبة قد يبدؤها الكاتب بآية قرآنية، ثم بحمد الله تعالى، وأفضلها ما تكرر فيه الحمد ثلاث مرات[٢] وهذا الأسلوب - في رأي القلقشندي - أفضل الأساليب وأعلاها[٣].

أو أن تفتتح - أيضاً - بالصلاة والسلام على الخليفة - على مذهب من يجيز الصلاة على غير الأنبياء - ومثال ذلك قول القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين مبشراً الخليفة بفتح بلد من بلاد النوبة: «صلوات الله التي أعدها لأوليائه وذخرها، وتحياته التي قذف بشهبها شياطين أعدائه، ودحرها، وبركاته التي دعا بها كل موحد فأجاب، وانقشع بها غمام الغم، وظلام الظلم....»[٤].

وقوله في مقدمة رسالة ثانية: «سلام الله الأطيب، وبركاته التي يستدرها الحضَر والغيَب، وزكواته التي ترفع أولياءه إلى الدّرج، ونعمه التي لا تجعل على أهل طاعته في الدين من حرج، على مولانا سيد الخلق، وسادّ الخرق....»[٥].

أو أن تستهل الرسالة بألفاظ مثل: أصدرت المكاتبة، أو أصدرناها، أو أصدرنا هذه المكاتبة، أو صدرت المكاتبة[٦]، أو يقبل الأرض[٧]، أو يخدم

---

(١) أبوشامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٨٩. والآية رقم (١٧٤) من سورة آل عمران.

(٢) ابن شيث: معالم الكتابة: ص٤٨، وانظر مثالاً على ذلك الروضتين: ج٢: ص٩٦-٩٧، والقلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٥١٥ - ٥١٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٣٢٠.

(٤) المصدر السابق: ج٦: ٥١٠.

(٥) المصدر السابق: ج٦: ص٥١٤.

(٦) المصدر السابق: ج٦: ص٣٢٨، ج٧: ص٢٣.

(٧) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١٦٦.

الجناب العالي، أو يخدم المجلس العالي[١]، أو هذه المكاتبة[٢]، أو كتابنا[٣]، أو كتب الخادم هذه الخدمة[٤].

أمّا في مخاطبة أهل الملل المخالفة للإسلام، فلا يجوز أن يخاطبوا بالظفر وعلو الكلمة، والدعاء بالفوز بالآخرة، «ويجوز أن يخاطبوا بالمملوك والعبد، ومملوكه وعبده، وصفي وده، والمعتد بشكر تفضله، وقد كره أكثر الكتّاب أن يخاطبوا بالأخ، وأجازوا بالولد»[٥].

ويعد حسن التخلص من المقدمة، والانتقال إلى موضوع الرسالة الرئيس ضرورة من ضرورات الكتابة[٦]، ولهذا اعتمد الكتاب في ذلك على عدد كبير من الكلمات، وقد خصص ابن الأثير فصلاً كاملاً في كتابه «المفتاح المنشا لحذيقة الإنشا» لهذه الكلمات والعبارات التي تلي الأدعية، وتنقل الكاتب إلى الغرض الرئيس، ومنها: «ينهي، ويوضح، ويستوضح، ويشعر، ويحيط، ويعلم، ويستعلم، ويبين، ويسأل، وسؤاله، ويشفع، ويتوقع، ويرجو، ويأمل، ويختار، ويقصد، ويتوخى.....»[٧].

ثم ينتقل الكاتب إلى العرض، وقد يتحدث فيه عن موضوع واحد كما هو في منشورات إسقاط المكوس[٨]، ورسائل الاستنجاد[٩] والبشائر والتهاني بالفتوح[١٠]،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٣٢٩.

(٢) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١٣٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٧: ص٢٩.

(٤) أبوشامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٩٦.

(٥) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص٢٠.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٢٢.

(٧) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص٤٠ – ٤٢، وانظر أيضاً رسائل ابن الأثير: ص٧٠ – ٧٤ (تحقيق القيسي وناجي).

(٨) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص٩١–٩٢ (تحقيق هلال ناجي).

(٩) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١٧١–١٧٣.

(١٠) ابن عبد الظاهر: الدر النظيم: ص١٥–٣٤، والقلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٤٩٠–٥١٤، ٥١٥– ٥١٩، وعز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة (لبنان والأردن وفلسطين): ص٢٠٤–٢١٠.

أو قد يتحدث عن موضوعات متعددة كما هو في تقاليد الولاة[١]، وأصحاب الحسبة، والخطابة، ونقابة الأشراف وغيرها[٢].

وفيها يتناول الكاتب الموضوعات المتعددة في الرسالة، الواحد تلو الآخر، وتعد وحدة الموضوع في الرسالة أو ترابط الموضوعات المتعددة فيها ركناً من أركان الكتابة إذ يجب «أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض ولا تكون مقتضبة»[٣].

ثم ينتقل الكتاب انتقالاً مناسباً إلى اختتام رسائلهم بخواتيم جميلة واضحة، جيدة المعاني، سهلة الألفاظ بعيدة عن الحشو والغرابة، مناسبة للموضوع الرئيس، فتكون بذلك «قفلاً لمحاسنها، كما أن أولها مفتاح لذلك»[٤].

وقد تنوعت أساليب الكتّاب في اختتام رسائلهم ومنها: الدعاء للمخاطب، مثل قول الفاضل في ختام رسالة عن صلاح الدين إلى الخليفة بمناسبة فتح بيت المقدس: «... جمع الله لأمير المؤمنين طاعة خلقه، وأذلّ رقاب الباطل سيف حقه، وجعل الله ما هو قبضته في الآخرة، قبضة أمير المؤمنين في الأولى...»[٥].

أو حمد الله على ما أولاه من النعم، ومن أمثلة ذلك قول ابن الأثير في خاتمة توقيع كتبه عن الملك الأفضل بإطلاق المكوس والمظالم بدمشق: «.... والحمد لله الذي جنبنا فعل القوم المسرفين، وجعلنا ممن أسلف خيراً فكان من المسلفين....»[٦] أو بالأمر إن كانت الرسائل صادرة عن السلاطين أو الملوك إلى عمالهم مثل قولهم: «فاعلم بهذا واعمل به»[٧]. ثم ينهون هذه الخاتمة -غالباً- بعبارات منها: «وللرأي

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٥٧ - ١٦٤.

(٢) رسائل ابن الأثير: ص١٢٤ - ١٢٧، ١٣٢ - ١٤٨ (تحقيق المقدسي).

(٣) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٢٢.

(٤) ابن عبدالغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام: ص٢٥٤، وانظر ابن شيث: معالم الكتابة: ٧٨.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٥٠٤، وانظر أيضاً ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٦٤.

(٦) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص٩٢ وانظر أيضاً رسائل ابن الأثير: ص٩٢ (تحقيق القيسي وناجي).

(٧) ابن شيث: معالم الكتابة: ص٥٠.

العالي فضل السمو والفكرة، إن شاء الله »[١] أو « للآراء العالية مزيد من العلو إن شاء الله تعالى »[٢]، أو « الرأي أعلى، إن شاء الله تعالى »[٣]، « والسلام »[٤]، أو « والسلام، إن شاء الله تعالى »[٥].

وقد تباينت الرسائل الديوانية في أطوالها حسب موضوعاتها وكتّابها، فقد اتصفت بالطول بشكل عام رسائل البشائر والتهاني بالفتوح، ورسائل الاستنجاد، وتقاليد الولاة والخطباء، ونقباء الأشراف وأصحاب الحسبة، فقد حرص كتّاب رسائل البشائر والتهاني بالفتوح على وصف تفاصيل المعارك وإبراز شجاعة العدو وكثرة عدده وعدده، ومناعة حصونه، وشدة أذاه للمسلمين، ثم وصفوا شجاعة الجيش الإسلامي، وتضحيته، وحسن بلائه وإكرام الله له بالنصر[٦].

وعمد كتاب رسائل الاستنجاد بملوك المسلمين الآخرين إلى الموازنة بين الوضع العسكري للمسلمين، والوضع العسكري للفرنج، وبيان كثرة الإمدادات القادمة إلى الفرنج من الغرب، وحاجة المسلمين إلى مثل هذا الإنجاد بالأموال والرجال والسلاح والأساطيل من إخوانهم في الدين[٧].

واتجه كتّاب التقاليد إلى المبالغة في الإطراء على المخاطب، وبيان عظم مسؤولية تلك الوظائف المناطة بهؤلاء الموظفين، وتعداد واجباتهم ومهماتهم[٨].

---

(١) ابن شبث : معالم الكتابة : ص٤٩، ٥٠.

(٢) رسائل ابن الأثير: ص٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ١٢٠، ١٢١، ١٢٧ وغيرها (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) المصدر السابق : ص٨٨، ١٣٤، ١٤٤ وغيرها.

(٤) أبوشامة : الروضتين: ج٢، ص١٧٣، ورسائل ابن الأثير: ص٢٧، ٣١، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٤٠ وغيرها (تحقيق المقدسي).

(٥) رسائل ابن الأثير: ص١١٨، ١٢٤ وغيرهما (تحقيق القيسي وناجي).

(٦) انظر مثلاً أبوشامة : الروضتين: ج٢ : ص٩٦-١٠١، ورسائل ابن الأثير: ص٦٦-٦٩ . (تحقيق القيسي وناجي)، ورسائل ابن الأثير: ص١٢٤-١٢٧، ١٣٢ - ١٤٨ (تحقيق المقدسي).

(٧) أبوشامة : الروضتين: ج٢ : ص١٧١ - ١٧٣، ورسائل ابن الأثير ص٧٣-٧٥ (تحقيق القيسي وناجي).

(٨) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢ : ص١٥٧-١٦٤، ورسائل ابن الأثير: ص١٢٤-١٢٧، ١٣٢- ١٤٨ (تحقيق المقدسي).

وجاءت منشورات إلغاء المكوس[١]، ورسائل التهديد والوعيد متوسطة لأن موضوعاتها لا تحتمل الإطالة[٢]، ونادراً ما جاءت الرسائل الديوانية قصيرة، ومن ذلك رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل في مصر بخصوص ضرورة قتل أسرى الفرنج الذين حاولوا الاعتداء على المقدسات الإسلامية في الحجاز، لأن موقفه من هذا الأمر كان قاطعاً وغير قابل للنقاش والحجاج[٣].

الأسلوب:

اهتم الكتاب في هذا العصر بالألفاظ اهتماماً فائقاً، فبرعوا في انتقائها لتتناسب مع معاني الرسالة وموضوعها من ناحية لأن على الكاتب الذي يقدم معنى بديعاً أن يلتمس «له لفظاً يناسبه، فإنه جدير بالمعنى الشريف أن يكون لفظه شريفاً[٤]»، ولأن اللفظ - كما يقول ابن الأثير - «كالصورة، والمعنى كالروح، فإن اتفقا وقع الكمال، وإن اختلفا وقع النقص»[٥]، ولتتناسب تلك الألفاظ مع مستوى المخاطب من ناحية أخرى. واختاروا - كما رأينا - الألفاظ الفصيحة البعيدة عن العامية والابتذال والمألوفة بالنسبة لهم، البعيدة عن الوحشية والجهامة اللتين يمجهما السمع وينبو عنهما، والجزلة القوية التي تتناسب مع الموضوعات الجادة في الرسائل الديوانية، ولم يستخدموا الألفاظ الغريبة إلاّ قليلاً للوصول - غالباً - إلى السجع أو الجناس أو غيرهما من ألوان البديع مثل قول الفاضل في رسالة له عن صلاح الدين إلى الديوان العزيز مبشراً بفتح القدس: «لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة[٦]، ولا فناء الأفنية لهم نصرة»[٧] وقول العماد الكاتب في رسالة له عن صلاح الدين إلى

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص٩١-٩٢.

(٢) المقريزي: السلوك: ج١ك ق٢: ص٣٣٤ - ٣٣٥.

(٣) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص٣٧.

(٤) ضياء الدين بن الأثير: الجامع الكبير: ص٢١.

(٥) ابن الأثير: كفاية الطالب: ص٤٥.

(٦) العصرة: بمعنى الملجأ والمنجاة (اللسان: مادة: عصر).

(٧) ابن عبد الظاهر: الذر العظيم: ص٢٢.

الديوان العزيز: «فكم قرية كأنها هجرة الموت وبها التاريخ، وكم طعنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ»[١].

واستخدم الكتّاب في رسائل الجهاد بخاصة الألفاظ والعبارات المتعلقة بالعقيدة النصرانية والألقاب الفرنجية، ومن أمثلة ذلك ما ورد في رسائل الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير والناصر داود مثل: الصلبان، والتثليث، والكنائس، والبيع، والصوامع، والناقوس والمذابح، والدير، وصليب الصلبوت، وعبدة الصليب، وأهل الأحد، والبابا والقسيس والبطرك والمركيس والقومص، والابرنس والكند والداوية والاسبتارية[٢]، كما استخدموا بعض هذه التعبيرات وما يقابلها من العبارات الإسلامية لأن الصراع كان محتدماً – آنذاك – بين العقيدتين مثل قول الفاضل: «.. ولما حطّت لدين الكفر تيجان، وحطمت لذويه صلبان، وأخرس الناقوس الأذان، ونسخ الإنجيل القرآن....»[٣].

وقول العماد الكاتب: «... الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين، وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف...»[٤]. وقول ابن الأثير: «... وزادهم (الفرنج) غيظاً إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة، وقد صار الناقوس أذاناً، وكلمة الكفر إيماناً»[٥] واستخدموا بعض الألفاظ الغزلية مثل قول الفاضل: «.. وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بكرا»[٦] وقول العماد

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٥١٧، والشماريخ: مفردها شمراخ: وهو رأس الجبل (اللسان: مادة: شمرخ).

(٢) انظر مثلاً: ابن عبدالظاهر: الدر النظيم: ص١٥-٣٤، وأبوشامة: الروضتين: ج٢: ص٩٣-١٠١، والقلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٥١٥ – ٥١٩، ورسائل ابن الأثير: ص١٤٩-١٥٧ (تحقيق المقدسي)، وعز الدين ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، تاريخ مدينة دمشق: ص٢١١-٢٢٠، ٢٢٦-٢٣٣.

(٣) انظر مثلاً: أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص٩١-٩٧.

(٤) المصدر السابق: ج٢: ص٩٦-٩٧.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص١٥٤ (تحقيق المقدسي).

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص١٢٩.

الكاتب: «... وجليت الصخرة جلوة العروس»[١] وقول ابن الأثير: «... أبكار المناقب كأبكار الكواعب، تزهى بجمالها، وتنأى بوصالها، ولا تزفّ إلاّ لمن يقوم بأمرها، ويسمح بإغلاء مهرها....»[٢].

وبعض مصطلحات القرآن الكريم والحديث الشريف مثل قول ابن الأثير: «ولدولتنا حديث حسن، تتناقل الرواة تواريخ أخباره، وتستلذ الأفواه منافثة أسماره، ويتمثل أعشاراً في سور الزمان، فلا يمحو تقادم العهد صور أعشاره....»[٣] وقوله: «....كيف يلتحق من لا إنافة في حسبه الحسب المعنعن إلى هاشم بن عبد مناف»[٤].

والمصطلحات اللغوية مثل قول ابن الأثير في تقليد كتبه عن الملك الأفضل لأحد نقباء الأشراف: «.... وليقرأ تقليدك هذا في حفل يشتمل على أشتات الناس ما بين تعريف وتنكير، وتقديم وتأخير، وجمع صحة وتكسير»[٥].

وألفاظ المتكلمين، والفرق الدينية، مثل قول الفاضل: «... وليفوز بجوهر الآخرة، لا بالعرض الأدنى من الدنيا»[٦]، وقوله «وأطماع الفرنج فيما بعد ذلك غيرمرجئة ولا معتزلة»[٧] ومصطلحات الرياضيات مثل قول ابن الأثير: «وغير خافٍ أن عبيد الدولة لها كالعمد من طرافها، ومركز الدائرة من أطرافها»[٨]، ونظراً لعدم مبالغة الكتّاب وإسرافهم في استخدام هذه المصطلحات فقد جاءت في معظمها طريفة وغير مستقبحة.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٢٤١.

(٢) رسائل ابن الأثير: ص٦٥ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) المصدر السابق: ص٦٥ (تحقيق القيسي وناجي).

(٤) المصدر السابق: ص ١٣٨-١٣٩ (تحقيق المقدسي).

(٥) المصدر السابق: ص١٣٩ (تحقيق المقدسي).

(٦) ابن عبدالظاهر: الدر النظيم: ص١٩.

(٧) المصدر السابق: ص٣٣.

(٨) رسائل ابن الأثير: ص١٢٦-١٢٧، (تحقيق القيسي وناجي).

وكانت الحروب – آنذاك – منهلاً غزيراً للكتاب فاستقوا منها كثيراً من الألفاظ المتعلقة بالقتال والحروب والجيوش والأسلحة والقلاع والحصون – كما رأينا – في رسائل الجهاد.

وقد صاغ الكتاب ألفاظهم في عبارات فصيحة واضحة قوية بعيدة عن الركاكة والغموض والتعقيد الذي يستهلك المعاني ويشين الألفاظ[١]، كما اهتموا بتنقيح الألفاظ والعبارات والتأنق في تجويدها للدلالة على البراعة والتقدم في الصناعة[٢] وبالغوا في الاهتمام بالصنعة البديعية وكانت للقاضي الفاضل اليد الطولى في ذلك حتى عُدَّ شيخ صناعة الكتابة في عصره ونسبت إليه هذه الطريقة، فقيل: «الطريقة الفاضلية»[٣] فالتزم الكتاب بالسجع التزاماً تاماً في جميع رسائلهم، حتى الطويلة منها، وجاءت معظم أسجاعهم قصيرة أو متوسطة إذ ابتعدوا – غالباً – عن الأسجاع الطويلة المستكرهة، كما أكثروا من استخدام الازدواج، وحسن التقسيم، لإقامة التوازن بين الجمل لتنساب منها إيقاعات موسيقية مناسبة ومؤثرة، ومن ذلك قول الفاضل في وصف تتابع الإمدادات الفرنجية: «.. وأنهض أبطال الباطل من فارس وراجل، ورامح ونابل، وحافٍ وناعل، ومواقف ومقاتل....»[٤]، وقول العماد الكاتب: «.. فالحمد الله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه، مبيضاً نصره، مخضراً نصله، متسعاً فضله، مجتمعاً شمله....»[٥].

والطباق مثل قول الفاضل: «.... فأجابوهم رجالاً وفرساناً، وشيباً وشباناً، وزرافات ووحدانا، وبراً وبحراً، ومركباً وظهراً....»[٦].

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: الجامع الكبير: ص٢١.

(٢) المصدر السابق: ص٢١–٢٣.

(٣) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر: ص٣٧٠، وكمال اليازجي: تطور الأساليب النثرية: ص٢٩٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٥٢٧، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٤٩٧.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٢٠٣.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٥٠٧، وأبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١٧٢.

والمقابلة مثل قول ابن الأثير: « . . . ولما فصلت الحرب حاز المسلمون من المغانم أوقاراً، ومحواً من الصحائف أوزاراً، فغدوا ثقالاً من الأسلاب، خفافاً مما خُطّ في الكتاب . . . . »(١).

والجناس مثل قول العماد: « . . . وما برحوا على مصابرة ومكابرة، ومقارعة ومعاقرة، ومكافحة وملافحة، ومواقفة ومواقحة، ومطاحنة ومناطحة . . . . »(٢). وغير ذلك.

ومال الكتاب في رسائل الاستنجاد والتهاني بالفتوح، وتقاليد الوظائف الكبرى إلى الإطناب عن طريق المبالغة في إسباغ الألقاب والصفات الرفيعة على المخاطب في مقدمات الرسائل مثل قول الفاضل في مقدمة رسالته عن صلاح الدين إلى ملك المغرب: « وهذه التحية الطيبة الكريمة . . . وقادة على دار الملك، ومدار النسك، وجل الجلالة، وأصل الأصالة، ورأس الرياسة، ونفس النفاسة، وحكم الحكم، وعلم العلم، وقائم الدين وقيمه، ومقدم الإسلام ومقدمة، ومقتضي دَين الدين، ومثبت المتقين على اليقين، ومعلي الموحدين على الملحدين . . . . »(٣).

والإطالة في الدعاء له مثل قول الفاضل في الرسالة نفسها « . . . أدام الله له النصرة، وجهّز به تيسير العسرة، ورد له الكرة، وبسط له باع القدرة، وأوثق به حبل الألفة، ومهّد له درجات الغرفة، وعرفه في كل ما يعتزمه صُنعاً جزيلاً جميلاً، ولطفاً حفياً جليلاً، ويسرَّ عليه في سبيله كل ما هو ﴿ **أشد وطأً وأقوم قيلا** . . . ﴾(٤) ».

أو للتأكيد على بعض المعاني لبيان أهميتها عن طريق العطف والترادف ومن

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص٦٩ (تحقيق القيسي وناجي).

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٥١٧.

(٣) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١٧١، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٥٠٥-٥٠٦.

(٤) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١٧١-١٧٢، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٥٠٦، والآية رقم (٦) من سورة المزمل.

ذلك قول ابن الأثير في تقليد عن الملك الأفضل لأحد الولاة: « . . . وملاك ذلك كله أن تسوي في الحكم بين قريبك وبعيدك، وبغيضك وحبيبك، حتى لا يمتاز ذوو الفاقة عن ذوي اليسار، ولا الأجانب عن ذوي الشركة في لحمة النجار، وهذا مقام زلت عنه رواسخ الأقدام، ولا يملك المرء فيه قلبه، فإن ملك القلوب غير ملك الأجسام. . . . »(١).

أو لتعظيم الأمر وتفخيمه عن طريق الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال مثل قول الفاضل في رسالة إلى صلاح الدين: « . . . وأنه - كما قيل - أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، وأنه قد أسبغ عليه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين ملك الدنيا، وملك الآخرة. . . . »(٢).

أو للرغبة في حشد أكبر قدر ممكن من ألوان البديع مثل وصف العماد الكاتب لقتلى الفرنج في معركة حطين: « . . . وشاهدت ما فعل أهل الإقبال بأهل الإدبار. . . ورأيت الرؤوس طائرة، والنفوس بائرة، والعيون غائرة، . . . وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة، بالعراء عراة، ممزقة المآزق، مفصلة المفاصل، مفرقة المفارق، مفلقة المفارق. . . »(٣).

ومال الكتاب في بعض الرسائل إلى الإيجاز عن طريق استعمال جوامع الكلم من الآيات والأمثال والعبارات الموجزة كما في رسالة البهاء زهير التي ردَّ بها عن الملك الصالح نجم الدين أيوب على تهديد ملك فرنسا لويس التاسع(٤)، وفي رسالة الفاضل عن صلاح الدين إلى أخيه العادل حول قتل أسرى الفرنج الذين حاولوا الاعتداء على المقدسات الإسلامية بالحجاز مثل قوله: « . . وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في بقائهم فسحة، ولا في استبقاء أحد منهم

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٥٩-١٦٠.

(٢) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص٨٢-٨٣.

(٣) المصدر السابق: ج٢: ص٧٨.

(٤) المقريزي: السلوك: ج١: ق٢: ص٣٥٦-٣٥٧.

مصلحة... ولا حكم الله في أحدهم مشكل أو مجهول»[١].

واستخدم الكتّاب في رسائلهم الأساليب الخبرية غالباً، ولكنهم استخدموا - أحياناً - الأساليب الإنشائية التي تناسب مخاطبيهم وأجواء رسائلهم وموضوعاتها فأكثروا من الدعاء للمخاطب - كما رأينا سابقاً - والإغراء بالإنجاد مثل قول الفاضل في رسالة عن صلاح الدين إلى أخيه ملك اليمن: «فالبدار إلى الجنة البدار، والمسارعة إلى الجنة، فإنها لا تنال إلاّ بإيقاد نار الحرب على أهل النار»[٢].

وقول الكامل في رسالة منه إلى إخوته بالشام مستنجداً بهم «الوحا الوحا، العجل العجل...»[٣].

والنداء والأمر للاستغاثة والاستنجاد في قول الفاضل في رسالة عن صلاح الدين إلى الخليفة: «... فيا عصبة محمد - عليه السلام - أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفّه الحق فينا فإنا والمسلمون عندك ودائعه...»[٤].

ومثل الاستفهام للاستثارة والتحريض على الجهاد في قول العماد الكاتب في رسالة بعد سقوط عكا في أيدي الفرنج سنة ٥٨٧هـ: «... فأين ذوو الأنفة والحميّة، والهمم العليّة، والنفوس الأبيّة؟!..»[٥] وغير ذلك.

واتخذ الكتاب من القرآن الكريم منبعاً لا يغور، وكنزاً يرجع إليه، وذخراً يعول عليه في كلامهم[٦]، فقد كان ابن الأثير يحث الكتاب على ألاّ تخلو الرسالة «من معنى من معاني القرآن الكريم، والأخبار النبوية»[٧]، ويعدّ ذلك

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٣٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٧: ص٢٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ج٣: ص٨١.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٥٧.

(٥) المصدر السابق: ج٢: ص١٩٠.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: الجامع الكبير: ص١٩، ٨٩.

(٧) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٢٤ (تحقيق المقدسي).

ركناً من أركان الكتابة[١]، فإذا أحب الكاتب – كما يقول أيضاً – : «الترقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة، فإنه يحتاج إلى أشياء كثيرة، إلاّ أن رأسها وعمودها وذروة سنامها ثلاثة أشياء هي: حفظ القرآن الكريم، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية، والأشعار»[٢].

وقد أكثر الكتاب من اقتباس الآيات الكريمة بنصوصها في مطالع الرسائل تارة، ومن ذلك استهلال تورانشاه رسالته إلى نائبه بالشام مبشراً بالنصر على الفرنج في معركة المنصورة سنة ٦٤٨هـ بمجموعة من الآيات المعبّرة عن الابتهاج بهذا النصر قائلاً: ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** ﴾[٣] ﴿ **وما النصر إلاّ من عند الله** ﴾[٤]، ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾[٥] ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾[٦]، ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾[٧].

واستشهدوا بها تارة أخرى ضمن رسائلهم، فجاءت معبرة عن معانيهم أدق تعبير، في أبلغ عبارة، وأكثرها تأثيراً وإيحاء، ومن ذلك قول البهاء زهير في الرسالة التي رد بها عن الملك الصالح نجم الدين أيوب على رسالة لويس التاسع: «... فإذا جاء كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل: ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾[٨]، وكن على آخر سورة (ص): ﴿ **ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾[٩]، ونعود إلى قوله – تعالى – وهو أصدق القائلين: ﴿ **وكم من فئة قليلة غلبت فئة**

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٢٤. (تحقيق المقدسي).

(٢) المصدر السابق: ق١: ص١٢٨.

(٣) سورة فاطر: الآية رقم (٣٤).

(٤) سورة آل عمران: الآية رقم (١٢٦).

(٥) سورة الروم: الآية رقم (٤).

(٦) سورة الضحى: الآية رقم (١١).

(٧) المقريزي: السلوك: ج١: ق٢: ص٣٥٦ – ٣٥٧، سورة إبراهيم: الآية رقم (٣٤)، وانظر ديوان ابن الأثير: ج٢: ص٦٦، ٧٤، ٩٢، ١٤٣ وغيرها

(٨) سورة النحل: الآية رقم (١).

(٩) سورة (ص): الآية: رقم (٨٨).

كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين ﴾[١].

ونثروا الآيات في عرض رسائلهم، تارة ثالثة، فبدت وكأنها أجزاء من إنشاءاتهم، وقد حثّ النقاد على ذلك، حتى أن ضياء الدين بن الأثير ألّف كتاباً قصره على حل الشعر والآيات القرآنية، والأخبار النبوية سماه «الوشي المرقوم في حل المنظوم».

ومن أمثلة نثر الآيات القرآنية قول الفاضل في وصفه لنعمة استرداد بيت المقدس: «إنها بحر للأقلام فيه سبح طويل»[٢]، وهذا نثر للآية الكريمة: **﴿ إن لك في النهار سبحا طويلاً ﴾**[٣].

وقول العماد الكاتب في وصف ما حل بالفرنج عند مهاجمة صلاح الدين لبيت المقدس: «.. وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً سخرها الله على الكفار»[٤]. فهو مأخوذ من قوله تعالى: **﴿ سخرها عليهم سبع ليال، وثمانية أيام حسوماً ﴾**[٥].

وقول ابن الأثير في رسالته بمناسبة فتح بيت المقدس: «وقال الأقصى سبحان الذي أسرى إليّ بجنده، كما أسرى بعبده...»[٦] فهو مأخوذ من قوله جل وعلا: **﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى... ﴾**[٧].

وقول الملك الناصر داود في وصف برج قلعة داود ببيت المقدس بأنه «ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير»[٨]، فهو مأخوذ من قوله تعالى: **﴿ ثم ارجع**

---

(١) المقريزي: السلوك: ج١: ق٢: ص٣٥٦ - ٣٥٧، سورة البقرة: الآية رقم (٢٤٩).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٤٩١.

(٣) سورة المزمل: الآية رقم (٧).

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٥١٧.

(٥) سورة الحاقة: الآية رقم (٧).

(٦) رسائل ابن الأثير: ص١٥٥ (تحقيق المقدسي).

(٧) سورة الإسراء: الآية رقم (١).

(٨) عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة: لبنان والأردن وفلسطين: ص٢٢٧.

البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾[1].

واهتم الكتاب – أيضاً – بالأخبار النبوية، فحفظوا كثيراً منها، وجمع ابن الأثير كتاباً «يشتمل على ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية كلها يحتاج إليها في أسباب الكتابة»[2]، وقد أفاد الكتاب من معاني الحديث الشريف وألفاظه في كثير من رسائلهم، فاستقوا منه ما يتصل بعقيدتهم وفقههم ومفاهيمهم، وما يمس وجدانهم، وأدخلوه تارة بنصوصه في كتاباتهم بطريقة محكمة، تدل على الدقة والقدرة على التصرف في القول، ومن ذلك قول الفاضل في رسالة له إلى الخليفة يصف فيها حال المسلمين المحاصرين بعكا: «.. وكل من يعرفهم من أهل المعرفة.... يناشد الله المناشدة النبوية، في الصيحة البدرية، «**اللهم إن تهلك هذه العصابة**»[3] ويخلص الدعاء، ويرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة»[4].

وقول ابن الأثير في تقليد سلطاني عن الملك الأفضل لأحد الولاة: «والسعيد من إذا جاءته (يعني الإمرة) اتخذ التقوى عليها ظهيرا، وقال بالقول النبوي: «**أفلحت يا قديم إن لم تكن أميراً**»[5].

ونثروا هذه الأحاديث تارة أخرى في رسائلهم مثل قول الفاضل في رسالة له: «.. فالإسلام ببركاته البادية، وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً»[6]. فهو متأثر بقوله – عليه الصلاة والسلام –: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء**»[7].

---

(١) سورة الملك: الآية رقم (٤).

(٢) ضياء الدين بن الأثير: الوشي المرقوم: ص٣٦، ٥٠.

(٣) مأخوذ من قوله – عليه الصلاة والسلام – في معركة بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد...» (ابن هشام: السيرة النبوية: ج١: ص٤٥٩).

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٧: ص١٣٧.

(٥) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٥٨.

(٦) أبوشامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٦٣.

(٧) صحيح مسلم: ج٢: ص١٧٦.

وقول ابن الأثير في توقيع كتبه عن صاحب الموصل لأولاد بعض أصحابه وقد توفي والدهم فجعل لهم ما كان له من الإقطاع: « ... ولما مضى خلفناه في عقبه براً وإحسانا، وجعلناهم في التوكل علينا كالطير تغدو خماصاً وتروح بطانا »[١]. فهو مأخوذ من قوله (ﷺ) «**لو تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً، وتروح بطانا**»[٢].

وقد أكب الكتاب على حفظ الشعر، وكان باعثهم على ذلك - كما يقول - ابن الأثير: « كثرة الشعر، واستغراقه للمعاني، ولأن الأخذ منه أستر وأخفى »[٣]، ثم يحثهم على ذلك قائلاً: « من أحب أن يكون كاتباً، أو كان عنده طبع مجيب، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته.. »[٤] وقد ختم ابن الأثير -أيضاً- كتاب « المفتاح المنشا لحديقة الإنشا » بأبيات شعرية لكي يتمثل بها الكتاب في أثناء كتابتهم[٥].

وقد أكثر الكتّاب من الاستشهاد بالشعر في رسائلهم. فقد ضمن الفاضل رسالة بعث بها عن صلاح الدين إلى أخيه ملك اليمن مستنجداً به بيت جرير:

إن الكريمة ينصر الكرم ابنها   وابن اللئيمة للئام نصور[٦]

وضمن ابن الأثير في رسالة بعث بها إلى الملك الأشرف مهنئاً له بالنصر على جلال الدين شاه خوارزم قول أبي تمام:

« لو لم يقُد جحفلاً يوم الوغى لغدا   من نفسه وحدها في جحفل لجب »[٧]

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص١٢٨ (تحقيق المقدسي).

(٢) محيي الدين النووي: رياض الصالحين: ص٥٠.

(٣) ضياء الدين بن الأثير: الوشي المرقوم: ص٥٢.

(٤) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٣٦.

(٥) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص٢١-٥٥.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٧. ص٢٥، والبيت في ديوان جرير: ص٢٣٣.

(٧) رسائل ابن الأثير: ص٤٦، (تحقيق المقدسي)، والبيت في ديوان أبي تمام: ج١: ص٥٩.

obeikandi.com

كما نثروا الشعر في بعض رسائلهم، ومن أمثلة ذلك قول ابن الأثير في رسالة له: « . . . والشهب الطالعة على ذوات السروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة ذوات البروج »(١) إشارة إلى قول أبي تمام:

« والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب »(٢)

كما ضمنوا بعض رسائلهم بعض الأمثال السائرة والحكم، ومن أمثلة ذلك قول الفاضل: « . . . . والبلاء ينادي طبرية بلسان مصابها: إياك أعني، واسمعي يا جارة »(٣).

وقول العماد الكاتب في رسالة له يصف فيها حصار الكرك « . . والنصر أشهر من نار على علم، والحرب أقوم من ساق على قدم »(٤).

وقول ابن الأثير في رسالة له: « . . . فلما رآه (أي لما رأى صلاح الدين بيت المقدس) وقال هذا أمنية لمن يرى، وعلم حينئذ أن كل الصيد في جوف الفرا »(٥).

وقوله في تقليد لمنصب نقيب الأشراف العلويين: « . . . والأدعياء فيها، وإن كبرت كلمة تخرج من أفواههم، فإنهم يؤثرون جلباب الشرف ولبسه، ويسر كل منهم باغتراس ما لم يكن أمر غرسه، ومن الأمثال المستفيضة: على مثل ليلى يقتل المرء نفسه . . . »(٦) وقول البهاء زهير: « . . . إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك »(٧).

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص١٥٤ (تحقيق المقدسي).

(٢) ديوان أبي تمام: بشرح الخطيب التبريزي: ج١: ص٤١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٨٥.

(٤) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص٥٦، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص١٦٠.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص١٥٠ (تحقيق المقدسي).

(٦) المصدر السابق: ص١٣٥.

(٧) المقريزي: السلوك: ج١: ق٢: ص٣٥٧.

كما استشهدوا ببعض الأقوال المأثورة عن السابقين[١]، وبعض الإشارات التاريخية المشهورة[٢].

الصور الأدبية:

حفلت الرسائل الديوانية بالصور والأخيلة، وقد جاءت في معظمها صوراً بيانية مثل التشبيهات والاستعارات والكنايات، وقد تنوعت مصادر هذه الصور فبعضها جاء مستمداً من الثقافة الدينية، كالقرآن الكريم، والأخبار النبوية والمفاهيم الإسلامية، والتاريخ الاسلامي، ومن أمثلة ذلك قول الفاضل في رسالة عن صلاح الدين كتبها إلى الديوان العزيز بمناسبة إعادة مصر للخلافة العباسية: «... والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلاّ صماً وعمياناً»[٣] وقوله يصف تتابع النجدات من أوروبا إلى فرنج بلاد الشام: «... وقد اشتهر خروج ملوك الكفار في الجمع الجم، والعدد الدهم، كأنهم إلى نصب يوفضون، وعلى نار يعرضون....»[٤].

وقول العماد الكاتب في وصف حال الكفار في معركة حطين في رسالة إلى الديوان العزيز: «... وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، سخرها الله على الكفار، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجار نخل خاوية....»[٥].

وقول ابن الأثير في تقليد أنشأه لنقيب الأشراف العلويين بالموصل: «... قال النبي (ﷺ): «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار إلى إصبعيه السبابة والوسطى، فاسلك أنت هذا النهج الأهم، واهتد بعلمه الذي هو أوضح علم، واعلم أن من أشبه أباه فما ظلم»[٦]، وقوله أيضاً: «.. وبهذا البلد أوقاف وقفها

---

(١) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١٦٩.

(٢) انظر رسائل ابن الأثير: ص٦٦، ٦٧، ٧٤ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) أبوشامة: الروضتين: ج١: ق١: ص٤٩٧.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٤٩٨.

(٥) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص٨٩، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٢٠٣.

(٦) رسائل ابن الأثير: ص١٣٦ (تحقيق المقدسي).

قوم ثقلوا بها موازينهم، وخافوا يوم الفقر والمسكنة فأغنوا بها فقراءهم ومساكينهم، . . . فاصرف همتك إلى نمائها الذي يجعل السنبلة فيها مكيالاً، والقيراط مثقالاً . . . »[١].

وقوله في مقتل أرناط بعد معركة حطين: « . . وجعله أضحية لعيد النصر، لا أضحية لعيد النحر، ويرجو أن يطهر بدمه كتابه، ويغسل به حسابه »[٢].

وقوله في كتاب له في طلب الإنجاد بالمال: « . . . وهذه النوبة هي أخت جيش العسرة، ونصرة الإسلام فيها فوق كل نصرة . . . »[٣].

واستمدوا صورهم من بيئاتهم العامة بما فيها من عادات وتقاليد وحيوانات، وطيور وجبال ووديان وبحار وأنهار وغيرها، ومن ذلك قول العماد الكاتب في وصف الصخرة عند استرداد صلاح الدين لبيت المقدس: « . . . وقد جليت الصخرة المقدسة جلوة العروس . . . . »[٤] وقول الفاضل في وصف حصن الكرك وهو بأيدي الفرنج وقد قطع الطريق على المسلمين ما بين بلاد الشام ومصر والحجاز: « هو شجا في الحناجر، وقذى في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها وقعد بإرصاد العزائم وطرقها، وصار ذئباً للدهر في ذلك الفج، وعذراً لتارك فريضة الحج . . . »[٥].

وقول الفاضل أيضاً في وصف جيش صلاح الدين: « . . كالبنيان المرصوص انتظاماً، وكالغاب المشجر أعلاماً، وكالنهار المانع حديداً وهاجاً، وكالليل الشامل عجاجاً عجّاجاً، وكالنهر المتدافع أصحاباً، وكالمشط المطرد اصطحاباً »[٦].

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص١٣٧. (تحقيق المقدسي).

(٢) رسائل ابن الأثير: ص٦٩ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) المصدر السابق: ص٧٤ (تحقيق القيسي وناجي).

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٢٤١.

(٥) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص٥٥.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٥١٢.

وقول العماد الكاتب في وصف الإمدادات الغربية للإفرنج المحاصرين لعكا: « . . . وجلب البحر نحوها على أثباجه، أمثال أمواجه أمواجا . . . . »(١).

كما استمدوا صورهم – أيضاً – من الحروب الطاحنة التي كانت مستعرة – آنذاك – وما فيها من قتال وأسلحة وقلاع وحصون ومنها قول الفاضل: « . . . وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه، وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه، وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون . . . . »(٢).

وقوله –أيضاً–: « . . والمفتتح بيد الله من الشام، مدن وأمصار . . . وقلاع كانت للشرك معاقل، وللإسلام معاقر، ولبني الكفر مصانع، ولبني الإسلام مصارع . . . . »(٣).

وقوله: « . . . فيملأها عليهم جواري كالأعلام . . . تطلع علينا معاشر الإسلام آمالاً، وتطلع على الكفار آجالا . . . . »(٤).

ووصف العماد سفن الفرنج قائلاً: « . . . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة . . . . »(٥)، ووصف المنجنيق بقوله: « . . . . وزاحفوه بكل منجنيق كنيق . . . . »(٦).

وقول ابن الأثير في وصف صبر المجاهدين المسلمين: « . . . ويعتصمون بدروع صبر، لا دروع حديد . . . »(٧).

---

(١) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٥١٦.

(٢) الدر النظيم: ص٢١، وصبح الأعشى: ج٦: ص٤٩٤.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٥٠٦.

(٤) المصدر السابق: ج٢: ص٥٠٩.

(٥) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٥١٦.

(٦) المصدر السابق: ص٥١٦، والنيق: أرفع موضع في الجبل، أو الطويل من الجبال (اللسان: مادة: نيق).

(٧) رسائل ابن الأثير: ص٦٥ (تحقيق القيسي وناجي).

وقد مال الكتاب في صورهم إلى التشخيص والتجسيم، فقدموا الأشياء الجامدة في صور مؤثرة تحمل كثيراً من صفات الإنسان وأفعاله، كما قدموا المعاني المجردة في صور حسيّة حيّة مؤثرة ومن أمثلة ذلك قول الفاضل في المنجنيق: « .... وأسمع الصخرة الشريفة حنينة واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض »(١)، وقوله: « .... وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة، وكانت الطامث .... »(٢) وقوله: « ... وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهوداً، وكان الكفر مفقوداً، وكان الإسلام مولوداً ... »(٣).

وقول العماد الكاتب: « وأجيبت الصخرة عند استصراخها، وبركت البركة الناهضة إليها في مناخها، وغسلت من أوضارها، وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون »(٤).

وقول ابن الأثير في رسالة عن الملك الأفضل إلى صاحب الموصل يسليه عن هزمة حلت به: « ... وإذا جد شكت سيوفه من فراق مضاجعها، وبكت الرماح تحطم أضالعها .... »(٥). وقوله: « ... فإن الإمرة وإن درت أخلافها، وطاب مرتبعها ومصطافها، فإنها مرة الفطام، كثيرة الآثام ... »(٦).

ولم يقف الكتاب – أحياناً – عند تقديم الصور البيانية المجزأة بل عمدوا إلى التأليف بينها وتقديمها في مشاهد حية متكاملة، مثل قول ابن الأثير في وصف معركة حطين: « .. فلمّا أضاء النهار ركبت خيل الكفر وخيل الإيمان، وتقابل حزب الله وحزب الشيطان، ولم تزل الحرب تشن والكر ناش، ونارها

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٤٩٨.
(٢) المصدر السابق: ج٦: ص٤٩٤.
(٣) المصدر السابق: ج٦: ص٤٩٥.
(٤) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٩٧.
(٥) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٠٩.
(٦) المصدر السابق: ج٢: ص١٥٨.

تشب والموت غاشٍ، إلى أن تصافحوا بالصفاح، بعد أن تحيوا بالرماح، فلم نر إلاّ لباً مطاشاً، ورأساً محاشاً، وموارد دم تردها الصوارم عطاشا، وليل نقع جعل النهار لباسا والأرواح معاشا، وكان إلى جانب العدو عشب قد أخذ في الخمود، وتهيأ للوقود، فأرسل المسلمون فيه النار، وهي سلطان ما أعظمه، وأرسل الله عليه سلطان الريح فأججه وضرمه، فقوتلوا بحد النار وحد الحديد، وعجلت لهم جهنم قبل اليوم الذي تقول فيه: هل من مزيد؟.... وولى طاغية طرابلس مغذاً في فراره، حاسداً للطير على مطاره.... وأمّا الباقون من أئمة الكفر وطواغيته، ومردته وعفاريته، فإنهم ثبتوا ثبات المستبسل، وأبلوا بلاء المستقتل، وكانت هناك هضبة فارتقوها معصمين، واستأخروا إليها مقدمين، ثم عاودوا الكرة وبدؤوا الحرب كما كانت أول مرة....»(١).

وقد جاءت معظم صورهم - كما رأينا - بصرية، وبعضها سمعية وقليل منها ذوقية.

وهكذا فقد اقتربت في هذا العصر لغة النثر من لغة الشعر في هذه الرسائل، إذ حفلت بالألفاظ الموحية وبالصور الأدبية من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز، وبالازدواج وحسن التقسيم اللذين يفيضان على النثر إيقاعاً مناسباً، كما سدَّ السجع فيها مسد التقفية في الشعر.

وقد عبّرت كثير من الرسائل الديوانية عن عواطف المسلمين وصورت مشاعرهم في النصر، والهزيمة، والقوة والضعف، والوحدة والتنابذ، وفي الحرص على مصالح المجتمع بكل فئاته من مسلمين وذميين، وأبرياء، ومذنبين، وغير ذلك.

ومن أمثلة ذلك قول القاضي الفاضل في رسالة إلى صلاح الدين بمناسبة تحرير بيت المقدس تفيض حبوراً وابتهاجاً: «... كتب المملوك هذه الخدمة، والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها... وكلما فكّر

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص٦٨-٦٩ (تحقيق القيسي وناجي).

الخادم أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثة، يقال فيه: إنه الواحد، جددَّ لله شكراً تارةً يفيض من لسانه، وتارةً يفيض من جفنه»[1].

وقول العماد الكاتب في رسالة بعث بها إلى صلاح الدين عندما سقطت عكا بأيدي الفرنج سنة ٥٨٧هـ مواسياً له ومهوناً من شأن هذه الهزيمة: «... وإن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين، وإن غاض معين فما غاب المُعين، وإن ارتاب المبطلون، فما فارق الحق اليقين، وإن فتح المرتج، فما فات المرتجى، وإن ادلهمَّ الديجور، فلا بُدَّ أن يسفر عن الصبح الدجى»[2].

وقول ابن الأثير في تقليد عن الملك الأفضل لأحد الولاة: «وإذا رفعت إليك الظلامات، فنقب فيها عن الظاهر والباطن، ولا تقض للأول حتى تسمع من الآخر... ومتى لاحت لك شبهة فاستمسك بها في درء الحدود، وكن بالناس رؤوفاً رحيماً، لتقرّ بالزلفى من الرحيم الودود، وهب أن الجاني أساء في الاجترام، فما يجوز لك أنت أن تسيء في الانتقام... ومن الرعية الذين تحت يدك أهل الذمة... فعليك أن تملي عليهم ظل المعدلة، وتنزلهم حيث أنزلهم الله ورسوله من المنزلة»[3].

استوحى كتاب الرسائل الديوانية معظم معانيهم وصورهم - كما رأينا - من مخزونهم الثقافي، فجاءت - في أغلبها - محتذاة على مثال سابق، ومنهج مطروق[4]، وقد تعددت مصادر ثقافتهم فمنها: الدينية المستمدة من القرآن الكريم، والأخبار النبوية الشريفة، والمفاهيم الإسلامية، والحوادث الكبرى في التاريخ الإسلامي، ومنها: الأدبية المستقاة من التراث الشعري والنثري عند العرب، ومنها: الحربية المأخوذة من واقع ذلك العصر المليء بالحروب والمعارك ومنها المستوحاة من الثقافة العامة، والبيئتين الخاصة والعامة للكتاب، وقد أعادوا

---

(١) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص٨٣.

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٥١٩.

(٣) ابن الأثير: ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٦٠-١٦١، وانظر التقليد بكامله: «ص١٥٧-١٦٤».

(٤) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٥.

صياغة ما اطلعوا عليه من معانٍ وصور في قوالب جديدة مصبوغة بخصائصهم الذاتية ومتفقة وموضوعات رسائلهم.

ولم يقف تقليد هؤلاء الكتاب لسابقيهم - كما رأينا - عند استمداد بعض معانيهم وصورهم، بل تعداه إلى معارضة رسائل كاملة لهم لمحاكاتهم فيها تارة، ولمحاولة التفوق عليهم تارة أخرى فقد عارض ابن الأثير في بعض تقاليده بعض تقاليد مشاهير الكتاب السابقين(١)، ومن أمثلة ذلك قوله في تقليد كتبه في معارضة تقليد لأبي الحسن الصابئ: «... واعلم أنك قد تقلدت أمراً تعين به نفي الحلوم، ولا ينفكُّ صاحبه على عهدة الملوم، وكثيراً ما يرى حسناته يوم القيامة وهي مقتسمة بأيدي الخصوم، ولا ينجو من ذلك إلاّ من أخذ أهبة الحذار، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار، وعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة، والأخرى في النار...»(٢).

كما أعجب الكتاب كثيراً برسالة الفاضل التي أنشأها عن صلاح الدين بمناسبة فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، فعارضها العماد الكاتب برسالة من إنشائه منها: «.. ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه، وطهرت من أرجاس أنجاسه بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين، وطالما بأيدي الشرك صديت...»(٣).

وعارض ابن الأثير رسالة القاضي الفاضل التي بعث بها صلاح الدين إلى الديوان العزيز بمناسبة وقعة تل حطين وفتح مدينة طبرية، وعارضه في رسالة أخرى بعث بها إلى الديوان العزيز عند خروج الفرنج من البحر ونزولهم على حصار عكا سنة ٥٨٥هـ وعارضه - أيضاً - في رسالة وصف فيها قتال الأسطول في البحر على ثغر عكا، كما عارضه في رسالة كتبها إلى الديوان العزيز طلباً للإنجاد بالمال(٤)،

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص٢٨٣ - ٣٣١.

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص٣٢٤ - ٣٢٥.

(٣) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١٩٨.

(٤) رسائل ضياء الدين بن الأثير: ص٦٦-٧٥ (تحقيق القيسي وناجي).

ومنها: « . . . وسألت في إمدادها بنجدة من عطاياه تملأ أيديها وفراً، وأفئدتها صبراً، ﴿ **وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾[١] . . . وليس ذلك إلاّ لأن بلغت النفس فيها جهدها، وبذلت فيها وجدها، وقد تكفَّل الله بإخلاف النفقة في سبيله، وعوض المنفق بكثير الثواب عن قليله . . . وهذه درجة لا ينالها إلاّ من رغب فأقرض، لا من سمع فأعرض . . . »[٢] .

وحاول الكتاب إلى جانب ذلك التجديد -أحياناً- في صورهم ومعانيهم فقد اعتنى ابن الأثير كثيراً بالمعاني المبتدعة حتى أنه صنَّف رسالة قصرها عليها[٣]، والمعنى المبتدع -في نظره- هو الذي يبتدعه الأديب من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة، ويتنبه له عند الأمور الطارئة[٤]، وهو يرى أن المحدثين أكثر ابتداعاً للمعاني، وألطف مأخذاً، وأدق نظراً من سابقيهم[٥] .

ومن المعاني المبتدعة عند القاضي الفاضل قوله في المنجنيق: « . . فصافحت السور فإذا أسهمها في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر منها نسراً يخلد إخلاده إلى الأرض، ويعلو علوه إلى السماك، فأخلى السور من السّيارة، والحرب من النظارة، فأمكن النقّاب أن تسفر إلى الحرب النقاب، وأن تعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب . . . . »[٦] .

وقوله في رسالة إلى صلاح الدين: « وأما قوله: إنا نخاف من مؤاخذتنا بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام، وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفّيت، فيكفي مستغفراً لسان السيف الأحمر في

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٦٠) .

(٢) رسائل ابن الأثير: ص٧٤-٧٥ (تحقيق القيسي وناجي) .

(٣) ضياء الدين بن الأثير: الاستدراك: ص٦٠ .

(٤) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٧-٨ .

(٥) المصدر السابق: ق٢: ص٦٣ .

(٦) ابن نباتة المصري: مطلع الفوائد ومجمع الفرائد: ص٤٣٤ .

الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوت متقارعة الأضداد »(١).

وقوله: « .. ولا برحت ثمار النصر تجنى من شوك رماحه، وأشخاص الفتوح تتراءى في صفحات صفاحه، ويده تداوي جرحى الدهر حتى كأنها جانية جراحه، وأهل الزمان يتغطون من عين أبيهم العاق بظل جناحه »(٢).

وقول العماد الكاتب في فتح طبرية: « ... وفاض ري النصر من بحيرتها، وقضت على جسرها الفرنج، فقضت نحبها بحيرتها »(٣).

وقد « أجهد ابن الأثير نفسه في رسائله ليصل إلى معنى مبتدع أو غريب »(٤)، ومن أمثلة ذلك قوله: « .. إلى أن تصافحوا بالصفاح، بعد أن تحيوا بالرماح، فلم تر إلا لباً مطاشاً، وموارد دم تردها الصوارم عطاشا وليل نقع جعل النهار لباسا والأرواح معاشا »(٥).

الرسائل الإخوانية:

على الرغم من ازدهار الكتابة الديوانية كثيراً في هذا العصر إلا أنّ الأدباء كتبوا كثيراً من الرسائل الإخوانية في موضوعات الصداقة والمودة بين الإخوان والأقرباء، والأصدقاء، والشوق والحنين إليهم، والاعتذار إليهم، ومعاتبتهم، وطلب العناية منهم ببعض الأشخاص، والتهنئة، وغير ذلك.

فقد كتب القاضي الفاضل رسالة إلى أحد أصدقائه يصف فيها مدى شوقه وحنينه إليه ويتمنى لقاءه على الرغم من بعاده عنه فقال: « ... وكيف لا أذوب شوقاً إليه وحنة عليه، وقد فارقت منه الطائر الميمون الذي لم أزل أقابل منه كل يوم طائر اليمن والإقبال، والوجه الجميل الكريم الذي يجمع بين الجمال والإجمال، وما

---

(١) ابن نباتة المصري: مطلع الفوائد ومجمع الفرائد: ص٤٣٦ - ٤٣٧.

(٢) المصدر السابق: ص٤٣٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٥١٨.

(٤) أحمد مطلوب: ضياء الدين بن الأثير: ص١٨٧.

(٥) ابن نباتة المصري: مطلع الفوائد: ص٤٦١ - ٤٦٢، وانظر أيضاً: ص٤٥٩ - ٤٦٥.

تذكرته إلاّ وأشرقني بالدمع طرف مشتاق الى مرآة مرآه، وما توهمته إلاّ وطالبني بالقرب فؤاد ليس ينساه... وعسى وطن يدنو بهم ولعلما، وأرجو أن يكون ذلك قريبا، وما ذلك على الله بعزيز»[1].

وكتب -أيضاً- إلى ولده يطمئنه بتماثله للشفاء من مرض ألمَّ به، فقال: «... سطّرت هذه الأحرف إلى الولد العزيز - أدام الله توفيقه، ويسرَّ إلى الخير طريقه - من طهر يد حرسها الله، وكان قد عرض إليَّ مرض في عكا.... وسببه تعب الطريق، وتواتر الحركات التي وردت على أعضاء ضعيفة، وأنا في بقية من المرض أرجو زوالها، وعلى شرف من الصحة آمل من الله أن يفسح مجالها، وأنا اعلم أنَّ الأراجيف تكثر، والأقوال تزيد وتنقص، فثق بالله - تعالى- فإن شاء الله قد كشف الشدة أو يكشفها، ووعدت ألطافه بالصحة وهو لا يخلفها، والمتوقع منك ومن كافة الأصحاب الذين سخت بركتهم أن يخصونا بصالح أدعيتهم... وافرغ إلى الصلاة وقراءة القرآن، أحسن الله الخلافة عليك وعلى أهلك، وأتمَّ نعمته عليك كما أتمها على أبيك من قبلك، والله الموفق، إن شاء الله تعالى»[2].

وكتب ابن الأثير في فصل من كتاب يتضمن معاتبة أخ لإخوته، فقال: «... جرحوا قلبي وحبهم يذهب بألم الجراحة، وطرفوا عيني وهم يزيدون في نظرها ملاحة، وإذا صدرت الإساءة عن الأحباب لم يكن وقرها وقراً، وأصبحت وهي منسية إذا تجددت الإساءة بالذكرى، وما منهم إلاّ من سيط دمي بدمه، ولحمي بلحمه، ولولا أن الأسماء معارف الأشخاص لكان اسمي وارداً على اسمه، وكيف أخشن عليهم، وقد جبلني الله لهم على اللين؟! أم كيف أذود النفس عنهم، وهي مشتقة منهم، وآدم بين الماء والطين؟! ومتى أؤمل من شجرتي أغصانا كهذه الأغصان، وقد أصيبت جرثومتها بالجداد[3] ؟! ولهذا قيل إن

---

(١) محيي الدين بن عبد الظاهر: الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم: ص٩-١٠.

(٢) إنشاءات القاضي الفاضل: ص٧٣-٧٤.

(٣٥) الجداد: قطع الثمار (اللسان: مادة: جدد).

الإخوة يتعذر الاعتياض عنهم، ولا يتعذر الاعتياض عن الأولاد»[١].

وكتب إلى أحد أصدقائه لاستصلاح المودة بينهما فقال: «.... كنت عنده بالمنزلة التي آمن بها ما أجنيه، فصرت أخاف ما لم أجنه، وكان لا يقبل علي شهادة عينه، فأصبح الآن يقبل علي شهادة أذنه، لكن لم يجعل الله القلوب بين إصبعين من أصابعه، إلاّ ليذهب بها كل واد، ومن ها هنا كانت تنتقل من وداد إلى قلى ومن قلى إلى وداد، ولا شك أن لها بين الحالتين عمراً تنتهي إليه كما تنتهي أعمار الأجساد، والصبر خير ما استعمل في جفاء الإخوان، والماء إذا جرى في مكان ثم انحرف عنه فلا بد أن يعود إلى ذلك المكان»[٢].

ومما كتبه مشيداً بأخ صديق قوله: «... يومه في الصحبة كغده، ولسانه في الطهارة كيده، لا يحفر لأخيه قليبا، ولا يكون على عوراته رقيبا»[٣].

وكتب شاكياً من خلق أحد أصدقائه فقال: «... ولقد صبرت على أخلاقه العائثة، وعاملته بالخليقة الرائثة، وعالجته بضروب المعالجات، فلم تنفع فيه رقى الراقية، ولا نفث النافثة، ولما أعيا علي إصلاحه، أخذت بمقالة الخضر لموسى في المرة الثالثة»[٤].

وكتب إلى صاحب حلب - آنذاك - عناية بشخص غريب مقيم فيها، فقال: «... وكما أنه ضيف مولانا في إنعامه، فكذلك هو ضيف المملوك في ماعون أقلامه، وفرق بين المضيفين في سعة الفناء، وفضيلة الثناء، وليس ما يخفف على صفحات الكتاب، كالذي ينقل على الأيدي وعلى الرقاب، والمملوك ينطق عن المشار إليه مادحاً، ويستزيد له من الإحسان ماتحاً»[٥].

---

(١) ابن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٣٨-١٣٩.

(٢) المصدر السابق: ق١: ص١٤٨.

(٣) ابن الأثير: الوشي المرقوم: ص٢١٠.

(٤) ابن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٨٦، يشير إلى قوله تعالى على لسان الخضر لموسى (عليه الصلاة السلام): ﴿**هذا فراق بيني وبينك**﴾ الآية رقم (٧٨) من سورة الكهف.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص٣٣٧-٣٣٨ (تحقيق المقدسي).

وتبادل الكتاب الرسائل -أيضاً- للإشادة ببلاغة بعضهم، ومن ذلك ما كتبه أسامة بن منقذ مشيداً ببيان القاضي الفاضل وبلاغته، رداً على رسالة كان قد أرسلها إليه، يطلب فيها نسخة من كتابه «العصا» ويشيد فيها بشخصه وأدبه، فقال: «وما عسى أن يقول مطريه ومادحه، والفضل نغبة من بحره الزاخر، وقطرة من سحابه الماطر، تفرد به فما له من نظير، وسبق من تقدمه في زمانه الأخير، فتق عن البلاغة أكماماً، تزينت الدنيا منها بالأعاجيب، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تتلى في المحاريب، إذا استنطقت ازدحمت عليها العقول والأسماع، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع، فسبحان من فضلّه بالبلاغة على الأنام، وذللّ له بديع كلام ما كأنه من الكلام، تعجز عن سلوك سبيله الأفهام، وتحار في إدراك لطف معانيه الأوهام، وهو سحر لكنه حلال، ودرٌّ إلاّ أن بحره حلو سلسال...»[1].

كما تبادل الكتّاب الرسائل في الموضوعات الإخوانية الأخرى المختلفة مثل التهاني بقدوم مولود[2] أو عيد[3] أو برء من مرض[4] أو نجاة من مكروه، والشفاعة ببعض المذنبين، والشكر على هدية، أو رسالة، أوكتاب، والاعتذار عن قلة المكاتبة[5]، وغير ذلك.

وتدور الرسائل الإخوانية -كما رأينا- حول الموضوعات الخاصة التي تهمُّ الأديب، وقد جاءت في معظمها قصيرة أو متوسطة الطول نسبياً، وتدور حول

---

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٥٤١.

(٢) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، وغيرها، ورسائل ابن الأثير: ص٩٦-٩٩ وغيرها (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٠٣ (تحقيق هلال ناجي)، ورسائل ابن الأثير: ص٧٦-٧٧، ٧٩-٨٩ (تحقيق المقدسي).

(٤) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١١٠، ورسائل ابن الأثير: ص١١١-١١٦ (تحقيق المقدسي).

(٥) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص٨٦-٨٦، ١١١ - ١١٣، ١٧١، ١٧٧، ١٨٠ - ١٨١، ١٢٥ - ١٢٧، ١٢٤.

موضوع واحد[1]، وتتكون – غالباً – مثل الرسائل الديوانية من مقدمة وعرض وخاتمة، إذ كان الكتّاب يستهلون رسائلهم الإخوانية بمقدمات جميلة ومناسبة للموضوع الرئيس، ثم يحسنون التخلص والانتقال إلى العرض ثم يختمون رسائلهم بخواتيم بليغة مؤثرة، وقد جاءت معاني تلك الرسائل – غالباً – واضحة بعيدة عن الغموض والتعقيد، ومترابطة.

وكان الكتاب ينتقون ألفاظهم بعناية ودقة لتلائم موضوع الرسالة، ومستوى المخاطب ويصوغونها في عبارات فصيحة قوية حافلة بألوان الصنعة البديعية – التي تصل إلى حد التكلف أحياناً – من سجع وازدواج وحسن تقسيم، وجناس وطباق ومقابلة، واقتباس وتضمين، كما جاءت رسائلهم حافلة بالصور البيانية الحيّة والأخيلة المؤثرة المستمدة من ثقافتهم الواسعة ومن بيئاتهم ومشاهداتهم.

الرسائل الأدبية:

وازدهرت في هذا العصر – أيضاً – الرسائل الأدبية، وهي التي كتبها الأدباء حول موضوعات أخرى وصفية أو خيالية أو رمزية، مثل الطرديات والوصف، والمفاخرات، ووصف الحوادث الجارية وغيرها.

فقد أورد أسامة بن منقذ – كما رأينا – فصلاً كاملاً وصف فيه مشاهداته للصيد في مراحل حياته جميعها[2]، وكتب الأمير يغمر بن عيسى العكبري رسالة طويلة في وصف رحلة صيد قام بها بصحبة أصدقائه[3]، وقد ضمنها مشاهد مؤثرة لصيد الظباء والطيور.

وكتب الوهراني رسالة طريفة على لسان بغلته، وقدمها لأحد الأمراء، شكت

---

(١) انظر ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص٧٧–٩٠، ١٠٣، ١١١–١١٥، ١١٧–١١٩، ١٢٠–١٢٧، ١٢١–١٤٢، ١٥٠–١٥٣، ١٥٥–١٥٧، ١٦٥–١٧٦ وغيرها. ورسائل ابن الأثير: ص٧٥–١٠١، ١٠٣–١٠٧، ١٤٥–١٤٧ وغيرها (تحقيق القيسي وناجي).

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٩١–٢٢٦.

(٣) العماد الكاتب: خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٥٤–٣٩٠.

فيها مما تعانيه من الجوع وسوء الحال، وطلبت منه أن يمدها بما يفرج عنها ويصلح حالها من العلف[١]، وكتب رسالة أخرى موجهة للطيور، طلب فيها ألا يفخر الطير القوي على الطير الضعيف المسالم، وأثنى فيها على عدد من الطيور، ثم ندد فيها بالوطواط وطلب من كل من يظفر به أن يفتك به لسوء خلاله[٢].

وكتب - أيضاً - رسالة طريفة على لسان جامع دمشق وصف فيها أحوال مساجد دمشق وما حولها - آنذاك - وملخصها أنَّ مساجد دمشق وما حولها من الضياع عانت في زمن نور الدين محمود من الخراب والإهمال، فاجتمعت عند أميرها الجامع الأموي، ورفع جامع النيرب[٣] إليه رقعة ضمنها سوء أحوال المساجد وشكاواها، وما تلقاه «من جور العمال وتضييع الأعمال، ونهب الوقوف، وخراب الحيطان والسقوف، قد ألفهم الظلم والظلام، وأنكرهم المؤذن والإمام، فلا تسمع لهم حسيساً، ولا ترى منهم أنيساً، إلاّ أذان البوم، وتسبيح الغيوم، وقد ركعت حيطانها، وسجدت سقوفها وأركانها، وانصرفت من الصلاة أربابها وسكانها، تنوح عليهم الأجراس والنواقيس، وترثي لهم البيع والنواويس[٤].

يرثى له الشامت مما به ... يا ويح من يرثى له الشامت[٥]»

ثم تكلم جامع المزة[٦]، فوصف سوء أحوال المساجد، ثم تلاه مشهد برزه، فوصف ما حل بالمشاهد من خراب ودمار، وبعد أن استمع الجامع الأموي إلى شكاياتهم، أشار عليهم أن يرفعوا شكواهم إلى قاضي القضاة ابن عصرون، وعندما اطلع عليها ابن عصرون غضب كثيراً، وكتب على ظهرها هجاء للجامع الأموي، فغضب الجامع الأموي من رده وهجائه، ورفع شكواه وشكواهم إلى

---

(١) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص٩٠-٩٤.

(٢) المصدر السابق: ص٢٣٤-٢٣٧.

(٣) النيرب: قرب الربوة وهي الآن من ضواحي دمشق. (معجم البلدان: ج٥: ص٣٣٠).

(٤) النواويس: مفردها ناووس: وهو مقبره النصارى (اللسان: مادة: نوس).

(٥) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص٦٢.

(٦) المزة: قرية قرب دمشق، وقد أصبحت الآن جزءاً منها (ياقوت: معجم البلدان: ج٥: ص١٢٢).

الملك الزاهد نور الدين محمود، فلمّا وقف عليها اهتم بأمرها، وعزل ابن عصرون، وأصلح أحوال المساجد[١].

وكتب القاضي الفاضل إلى أحد أصدقائه في وصف دمشق حينما دخلها، فقال: «.. إني وصلت إلى دمشق المحروسة، حين شرد بردها، وورد وردها، واخضل نبتها، وحسن نعتها، وصفا ماؤها، وضفا رواؤها، وتغنت أطيارها، وتبسمت أزهارها، وافتر زهر أقحوانها، فحكى ثغور غزلانها، ومالت قضب بانها، فانثنت تثني ولدانها...»[٢].

وكتب ابن شكر في وصف دمشق - أيضاً - [٣] كما كتب العماد الكاتب رسائل في وصف القلم[٤]، وفي وصف الأمطار، والثلوج[٥]، وفي وصف فصل الشتاء[٦] وفي وصف القحط الذي حلَّ بالشام[٧] وفي وصف فصل الخريف[٨].

وكتب ابن الأثير رسائل أدبية كثيرة في وصف القلم[٩]، وفي وصف الشمعة[١٠]، وفي وصف أجواء بعض المدن[١١]، وفي وصف بستان ذي فواكه

---

(١) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص٦١-٧١، والوهراني في رقعته عن مساجد دمشق: ص١٠-١١، ١٢-٢٦.

(٢) عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة: (تاريخ مدينة دمشق) ص ٣١٨.

(٣) المصدر السابق: ص٣١٣.

(٤) العماد الكاتب: البرق الشامي: ج٥: ص١٧٥-١٧٧.

(٥) المصدر السابق: ص١٧٠-١٧١.

(٦) العماد الكاتب: البرق الشامي: ج٣: ص١٣٥.

(٧) المصدر السابق: ص٧١.

(٨) المصدر السابق: ص١٣٢-١٣٣.

(٩) ابن الأثير: الوشي المرقوم: ص١٠٢، ١٧٠، ١٧٩، ٢٠١.

(١٠) رسائل ابن الأثير: ص٩١-٩٢، ٩٤، ٩٦-٩٧ (تحقيق المقدسي).

(١١) رسائل ابن الأثير: ص١٠١ (تحقيق القيسي وناجي).

متعددة[1]، وفي وصف مسيرة في الفلاة[2]. وفي وصف مستنزه في زمن الربيع[3]، وفي وصف الشتاء والبرد[4] وفي وصف مصر[5]، وفي صيد السمك[6]، والصيد بالفهود والبزاة والكلاب[7] ومن ذلك قوله في وصف صيد الفهود: « . . . وجملة الأمر أنه عرض لنا سرب من الظباء مدرب على الصيد ومصائده، عارف بمخاتله ومكائده ، وقد طرق مكانه حتى لم يهنأ بمرتعه، ولا أمن نبوة مصرعه، وليس منه ما تمتع برؤية أشباهه من الفرقدين، ولا نسي الفجيعة بإلفه الذي خرَّ للفم واليدين، فلما أحس بنا طار خيفة حتفه، وكاد أن يختلف ظله من خلفه، فأرسلنا عليه فهدا سلس الضريبة ميمون النقيبة، منتسبا إلى نجيب من الفهود ونجيبة . . . وهو يبلغ المدى الأقصى في وثباته، ويسبق الفريسة ولا يقنصها إلاّ عند التفاته، وقد علمت الظباء أن حبائلها في حبل ذراعه، وأن نفوسها مخبوءة بين أضلاعه، فلم يكن إلاّ نبضة عرق أو لمعة ومض برق، حتى أدرك عقيلة من تلك العقائل، فأناخ عليها كلكله، ووقف بإزائها ينتظر مرسله، وكذلك فعل بأخرى منهن وأخرى وكلما رفع من بين يديه واحدة تابع الفرائس تترى، فكأنه يطلب ذلك السرب بنزوان الأحقاد، أو كأنه علم عدتنا فجعل ما يصيد على نسبة الأعداد . . »[8].

وكتب أيضاً رسالة في المفاخرة بين الأزهار، فقد خرج للنزهة في يوم جميل من أيام الربيع إلى روض بديع ساحر، فأخذ يسرح طرفه في محاسنه من ورود وطيور، فتخيل النرجس وقد وثب وثبة الريم من كناسه مفتخراً بمحاسنه، فانبرى

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص١٨٩-١٩٠(تحقيق المقدسي).

(٢) رسائل ابن الأثير: ص١٠٠-١١١(تحقيق القيسي وناجي).

(٣) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢ : ص١٤٦-١٥٠.

(٤) المصدر السابق: ج٢: ص١٠٤-١٠٥.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص١١٤-١١٥، ١١٦(تحقيق القيسي وناجي).

(٦) رسائل ابن الأثير: ص١٩٥-١٩٦(تحقيق المقدسي).

(٧) المصدر السابق: ص٩٧-١٠٨ .

(٨) المصدر السابق: ص١٠١-١٠٢.

الأقحوان لمبارزته، فحط من شأنه وافتخر بمحاسنه، فتصدى الشقيق له وبيّن مناقصه، وتغنى بجمال مناقبه، فنهضت له زهرة بدوية وعددت مظاهر ضعفه، وافتخرت بجمال لونها وطيب عرفها، فانبرى لها البنفسج مغضباً، وحطَّ من شأنها، ثم قال: « . . ولكن أنا حبيب النفوس، وتاج العروس، والعطر الموضوع في الجيوب، واللون الذي يشبه عذار المحبوب.

فأقبل الورد في جنوده، خافقة ألسنة عذباته وبنوده ، محمر الوجنات من الغضب منكراً على البنفسج ما جناه من سوء الأدب، فجال في ميدان المفاخرة وصال، وهتف بالبنفسج وقال: . . . . كيف أطعت هوى نفسك الأمّارة، حتى افتخرت بحضرة الإمارة؟! ألست صاحب الاسم المعجم، والبرد الذي ليس بمعلم، بينا ترى ناضراً، إذ يرى الطرف عنك نافراً، وهل لك فخر إلاّ أن تشبه بالعذار إذا بقل، وبالكبريت إذا اشتعل، ولم تحظ من هذين الوصفين إلاّ بالصيت المذموم، لأن هذا إحراق النار، وهذا تسويد الخد الملثوم. . . لكن أيامي أيام الأفراح، ومراوح الأرواح، ولا يشرف الربيع إلاّ بورودي، ولا تشبه خدود الحبيب إلاّ بخدودي، ولا تطرب النفوس إلاّ بمجاورتي، ولا تطيب الكؤوس إلاّ بمحاضرتي. . . ولم أزل من الأزهار في سؤال وجواب، وأنا منصت إنصات التعجب لمفاخرات الإعجاب. . . »[1].

حتى تصدت لهذه الأزهار ورقاء هاتفة، فانبرت لها غمامة ماطرة، فعارضتها الشمس التي خرجت من أثوابها، وبرزت من حجابها، ثم ختم هذه الرسالة بالمديح[2].

ويمكننا أن نستنتج من هذه النصوص أن الناثرين في هذا العصر قد اتّبعوا في صياغتها ثلاثة مذاهب أدبية: مذهب التصنع البديعي، والمذهب الوسطي، والمذهب المرسل (أو المطلق)، وكان الكاتب نفسه - أحياناً - يكتب بأسلوب منها في موضوع معين، ويكتب بأسلوب آخر في موضوع غيره[3].

---

(١) ابن الأثير: رسالة الأزهار: ص٩-١٠، (تحقيق هلال ناجي).

(٢) المصدر السابق: ص٧-١٢ (تحقيق هلال ناجي)

(٣) انظر: المذهب الأدبية وخصائصها الفنيّة: ص٣٤٧-٣٥٦.

النثر التأليفي

ازدهر النثر التأليفي في هذا العصر، فألف الكتاب والعلماء كتباً في فنون مختلفة فكتب معظمهم مقدمات بليغة لكتبهم، كما ظهر في هذا العصر الأدب التاريخي، والأدب الجغرافي، وأدب المجاميع الأدبية، وغير ذلك.

وقد وضع معظم المؤلفين مقدمات نثرية لكتبهم تأنقوا فيها، وساروا على نسق الرسائل الديوانية، فأكثروا فيها من السجع والجناس والمطابقة، وألوان البديع الأخرى، ومن الصور البيانية، ومن أمثلة ذلك قول ياقوت الحموي في مقدمة كتابه «معجم البلدان»:

«.. أما بعد، فهذا كتاب في أسماء البلدان، والجبال والأودية والقيعان، والقرى والمحال والأوطان، والبحار والأنهار والغدران، والأصنام والأبداد والأوثان، لم أقصد بتأليفه، وأصمد نفسي لتصنيفه، لهواً ولا لعباً، ولا رغبة حثتني إليه ولا رهباً، ولا حنيناً استفزني إلى وطن، ولا طرباً حفزني إلى ذي ود وسكن، ولكن رأيت التصدي له واجباً، والانتداب له مع القدرة عليه فرضا لازباً، وفقني عليه الكتاب العزيز الكريم، وهداني إليه النبأ العظيم....»[1].

وألف بعض المؤرخين كتباً قدموا فيها المادة التاريخية بلغة أدبية، وضمنوها بعض ما قاله الأدباء من نظم ونثر فيما يروونه من حوادث[2].

وقد حرص آخرون منهم على تقديم الحقائق التاريخية بأسلوب سهل بسيط بعيد عن التأنق والتزام السجع والصنعة البديعية المتكلفة، مع استخدام الصور والأخيلة أحياناً للتعبير عن عواطفهم تجاه بعض الحوادث مما يرقى بكثير من فقراتها ونصوصها إلى مستوى أدبي عال، مثل كتاب الكامل في التاريخ

---

(١) ياقوت الحموي: مقدمة معجم البلدان: ج١: ص٧.

(٢) انظر مثلا لذلك بحث «القيمة الأدبية في كتاب الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير» للدكتور عبد الكريم توفيق العبود. بحوث ندوة أبناء الأثير: ص١٨٣-٢٠٥.

لعز الدين علي بن محمد بن الأثير، والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه عز الدين بن الأثير في وصف خروج التتار إلى ديار الإسلام، وفي وصف مشاعره وأحاسيسه تجاه هجومهم الوحشي المدمر فقال: « ... لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاما لها، كارهاً لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً، وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها، وكنت نسيا، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت ذلك لا يجدي نفعا، فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله – سبحانه وتعالى – آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها...»(١).

وما كتبه ابن شداد في وصف حال المسلمين عند وفاة صلاح الدين: « ... وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج، حتى أن العاقل يتخيل أنّ الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً، وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة، وصلى الناس عليه أرسالاً... وكان نزوله في حفرته – قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه – قريباً من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزى الناس فيه، وسكّن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد، فما يوجد قلب إلاّ حزين، ولا عين إلاّ باكية، إلاّ من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع...»(٢).

وقدَّم عز الدين بن الأثير مادته التاريخية في كتابه «التاريخ الباهر في أخبار

---

(١) عز الدين بن الأثير: الكامل: ج١٢: ص٣٥٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٢٤٧.

الدولة الأتابكية بالموصل» بأسلوب أدبي توسعَ فيه في استعمال السجع، والصور البيانية، وتأنق في أسلوبه كما افتتحه بمقدمة مسجوعة، وختمه بخاتمة مسجوعة – أيضاً –[١]، واستشهد بالشعر في كثير من المناسبات وضرب أحياناً بعض الأمثال، ومن أمثلة نثره في هذا الكتاب قوله في وصف مسير عماد الدين زنكي، لمهاجمة الرها في سنة ٥٣٩هـ. «فحينئذ أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير، والجد في المسير، وهدد لمن عن صحبته تأخر، وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر، وأقبل مسرعاً كالسهم الصادر عن وتره، والسيل الصائر إلى مستقره، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا.... فلمّا علم من بها من العدو إقباله، سرى الرعب في احشائهم، واختلط الخوف بدمائهم، وأسقط في أيديهم... فصبَّه الله عليهم عذاباً، وساقه إليهم عقاباً...»[٢].

وحرص بعض المؤرخين على تقديم مادتهم التاريخية بأسلوب أدبي حافل بالصنعة البديعية المتكلفة والصور والأخيلة مثل كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» الذي أرَّخ فيه العماد الكاتب لما قام به صلاح الدين الأيوبي من جهاد ضد الإفرنج وفتوح. منذ فتحه لبيت المقدس في سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) حتى وفاته في سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) وما تلاها من تقسيم دولته بين أبنائه وأقاربه، وقد اشتمل هذا الكتاب – أيضاً – على صفات صلاح الدين وسجاياه الحميدة، وحفل بعدد من الكتب والرسائل التي أنشأها المؤلف في تلك الحوادث، ومن نماذج كتابته في هذا الكتاب قوله في وصف حال الفرنج في مدينة بيت المقدس عند وصول صلاح الدين بجيشه إليها لفتحها: «... وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من سائف ونابل، وبطل للباطل، وعاسّ[٣] عاسل[٤]

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١-٣، ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق: ص٦٨.

(٣) عاسّ: طائف بالليل، يحرس الناس ويكشف أهل الريبة (اللسان: مادة عسس).

(٤) عاسل: مهتز أو مضطرب (اللسان: مادة: عسل).

بالعـاسل[1]، قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون، ويرمون ويدمون، ويحمون ويحمون، ويحتدون ويحتدمون، ويضطربون ويضطرمون،ويذودون ويذبون، ويشبون ويسبون، ويصرخون ويحرضون»[2].

ومـثل كـتـاب «البـرق الشـامي» الذي جعله العـمـاد الكاتب في بضـعـة مـجلدات[3]، وقد بدأه بالحديث عن نفسه، ثم عن انتقاله من العراق إلى الشام في سنة (٥٦٢هـ/١١٦٧م)، والتحاقه بخدمة السلطان نور الدين محمود، ثم بصلاح الدين من بعده، وتحدث عن مكانته لديهما، وعن الفتوحات التي جرت في بلاد الشام -آنذاك- وأنهاه بحوادث سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) وقد ضمنه كثيرا من كتبه ورسائله وشعره[4]. وعددا من إنشاءات القاضي الفاضل[5]، ومن نماذج كتابته في هذا المؤلف قوله يصف نزول صلاح الدين بجيشه على حصن بيت الأحزان وفتحه في سنة ٥٧٥هـ: «... ووصلنا إلى الحصن في أيام كأنهن ليالٍ في ظلمة العثير[6]، وليال كأنهن أيام من سنا السنور[7]، وقد جاش الجيش بقساور قساوة، وضراغم ضراوة، وليوث كفاح، وكباش نطاح...»[8].

وتتجلى في كتابي العماد هذين - كما رأينا - السمات الأسلوبية لرسائله الديوانية فقد طغت على أسلوبه فيهما العناية الفائقة باختيار الألفاظ، والتأنق في صياغتها، والإسراف الشديد في الصنعة البديعية من سجع، وجناس، وطباق

---

(١) الرمح العاسل: الرمح المضطرب اللدن (اللسان: مادة: عسل).

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص١٢٤.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٩: ص١٩، ولم يحقق منه سوى الجزء الثالث الذي أرخ فيه للحوادث في سنة ٥٧٣هـ إلى سنة ٥٧٥هـ وقد قام بتحقيقه د. مصطفى الحياري. والجزء الخامس الذي أرّخ فيه للحوادث في سنتي ٥٧٨هـ و ٥٧٩هـ وحققه د. فالح صالح حسين.

(٤) العماد الكاتب: البرق الشامي: ج٣: ص٢٤-٢٨، ٣٣-٣٥، ٤٥-٥٠، ٦٩-٧٥ وغيرها.

(٥) المصدر السابق: ج٣: ص٤٢-٤٤، ٥٩، ٦٥-٦٨، ٧٥-٧٦، ٩٤-١٠٤ وغيرها.

(٦) العثير، والعثيرة: العجاج الساطع، والغبار (اللسان: مادة: عثر).

(٧) السنور: جملة السلاح، وخص بعضهم به الدروع (اللسان: مادة: سنر).

(٨) العماد الكاتب: البرق الشامي: ج٣: ص١٧٦.

ومقابلة، وازدواج وحسن تقسيم، والتكلف في استخدامها، والميل إلى الإطناب، والمبالغة في استخدام الصور البيانية، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والتضمين بالمأثور من الشعر والنثر، مما جعل استخلاص الحقائق التاريخية منهما أمراً شاقاً.

وازدهر في هذا العصر أدب الرحلات، ووصف البلدان والمواضع، الذي دوّن فيه الجغرافيون والرحّالة ما شاهدوه من عمران ومدن ومعالم ومواضع، وما جرى لهم من حوادث في أثناء رحلاتهم وأسفارهم، ومن أشهر هؤلاء الكتاب: أسامة ابن منقذ، وابن جبير، وياقوت الحموي، وعبد اللطيف البغدادي.

فقد وصف أسامة في كتابه «الاعتبار» مشاهداته في أثناء حياته بشيزر ودمشق ومصر وحصن كيفا «في مذكرات شائقة قل نظيرها من حيث الأمانة في النقل، والصدق في الرواية والدقة في الملاحظة»(١).

ولم يصف أسامة في كتابه هذا البلاد التي زارها أو عمرانها، كما فعل معظم الرحالين العرب الآخرين، ولكنه وصف الحوادث التي جرت له فيها(٢)، ووصف الحياة الإجتماعية(٣) والإقتصادية(٤) لبلاد الشام، ومصر - آنذاك -، والعلاقات بين الفرنج والمسلمين في بلاد الشام(٥)، فاعتبره بعض الباحثين المحدثين في عداد الرحالين العرب، ووصفوا «الاعتبار» بأنه نسيج فريد في الأدب العربي(٦)، وبأن كتاب «الاعتبار» «تطور للرحلة التي جاءت على شكل مذكرات، وملاحظات سجلها أسامة بكل صدق ودقة في أسلوب قصصي»(٧). وعدّوا هذه الرحلة

---

(١) علي محسن عيسى مال الله: أدب الرحلات عند العرب في المشرق: ص٢١٥.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٤-٣٦ وغيرها.

(٣) المصدر السابق: ص ١١٥، ١٨٠، ١٩١-٢٢٦ وغيرها.

(٤) المصدر السابق: ص ١١-١٢، ١٠٥، ١١٢، ١٥١، ١٩٢-١٩٣ وغيرها.

(٥) المصدر السابق: ص١١٣-١٤١ وغيرها.

(٦) نقولا زيادة: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى: ص٧٢.

(٧) علي محسن عيسى مال الله: أدب الرحلات عند العرب في المشرق: ص٢٣١.

obeikandi.com

وثيقة تاريخية فريدة من نوعها في عصر الحروب الصليبية[١]، وفي الحقيقة فإن فصلي «أسامة في مصر»[٢] و«طبائع الإفرنج وأخلاقهم»[٣] يدخلان في صميم أدب الرحلات، ومن ذلك قوله يصف مسيره في وادي موسى بعد خروجه من مصر مع الوزير عباس الصنهاجي: «.. فسرنا في أشد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فهيد – لعنهم الله – في وادي موسى.. وبتنا في مبيت سوء من خوفهم، فلما أضاء الصبح أخذوا عدتهم، ووقفوا على العين، وقالوا: ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش، وتلك العين تكفي ربيعة ومضر، وكم في أرضهم مثلها! وإنما قصدهم أن ينشئوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا،فنحن فيما نحن فيه، ومنصور بن غدفل وصل، فصاح عليهم وسبهم، فتفرقوا، وقال: اركب، فركبنا ونزلنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعت فيها وأوعر، فنزلنا إلى الوطا سالمين، وما كدنا نسلم، فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه وعاد»[٤].

وكما – رأينا – فقد قدّم أسامة مشاهداته على شكل مذكرات بأسلوب قصصي سهل بسيط مشوّق خال من الصنعة أو التكلف.

أمّا ابن جبير فقد غادر غرناطة للحج في سنة ٥٧٨هـ، فمر بسبتة، وركب منها البحر إلى ميناء الإسكندرية، ومنها ركب النيل إلى القاهرة، فصعيد مصر، ثم سار إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، وأبحر منه إلى مدينة جدة، ثم سار منها إلى مكة حيث أدى مناسك الحج، ثم أقام فيها عدة أشهر، ثم سافر إلى المدينة المنورة، وزار القبر النبوي الشريف، ثم ارتحل إلى الكوفة والحلة وبغداد وسامراء وتكريت والموصل وحلب وحماة وحمص، ثم وصل إلى دمشق حيث

---

(١) على محسن عيسى مال الله: أدب الرحلات عند العرب في المشرق: ص٢٣١.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٦–٣٦.

(٣) المصدر السابق: ص١٣٢–١٤١.

(٤) المصدر السابق: ص٢٧–٢٨.

أقام فيها بضعة أشهر، ثم سار إلى بانياس ثم إلى عكا التي كانت بيد الإفرنج – آنذاك – فركب البحر في مركب إفرنجي، إلى صقلية، فتعرَّض هذا المركب أمام ساحل مدينة مسينة بجزيرة صقلية إلى كارثة، فأنقذت بعض الزوارق الركاب من الغرق، فنزل ابن جبير إلى جزيرة صقلية، واطلع على معالمها، ثم تابع رحلته، فوصل إلى غرناطة سنة ٥٨١هـ.

وقد وصف ابن جبير مشاهداته في هذه الرحلة وصفا دقيقاً شاملاً حياً ممزوجاً بعواطفه ومشاعره، فلم يكتف – غالباً – بالوصف الخارجي للمدن والمواضع التي مرّ بها، بل وصف معالمها وآثارها، وتحدث عن عادات سكانها وأخلاقهم، وتقاليدهم وأصولهم ونشاطهم الاقتصادي، مثل وصفه للإسكندرية، وجدة، وبغداد، ودمشق، وعكا وغيرها[١]، وأبدى إعجابه بما رأى، أو استهجانه منه، واتبع في تدوين رحلته «أسلوب المذكرات»[٢] وقد جاءت أفكاره فيها واضحة متسلسلة مترابطة كما نقل الحقائق التي شاهدها بأمانة وصدق مستخدماً في معظم رحلته الأسلوب المرسل (المطلق) الخالي من الصنعة البديعية المتكلفة، وقد انطلق فيه على سجيته، ونوع فيه بين السرد والوصف، ومن أمثلة ذلك قوله يصف مدينة عيذاب: «وهي مدينة على ساحل بحر جدة، غير مسوّرة، أكثر بيوتها من الأخصاص، وفيها الآن بناء مستحدث من الجص، وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة، وهي صحراء لا نبات فيها، ولا يؤكل فيها شيء إلاّ مجلوب، ولكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كبير ولا سيما مع الحاج لأن لهم على كل حمل طعام يحملونه ضريبة معلومة، .... ولهم أيضاً من المرافق من الحجاج إكراء الجلاب منهم...»[٣]. ثم يصف معاملة أهلها للحجاج فيقول: «... ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت، وذلك أنهم يشحنون

---

(١) رحلة ابن جبير: ص٧–١٧، ٤٥–٥٧، ١٩٣–٢٠٥، ٢٢٥–٢٢٨، ٢٣٤–٢٨٣.

(٢) يوسف عروج: النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس: ص٢٧٩.

(٣) رحلة ابن جبير: ص٤٥.

بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة ثمنها في طريق واحدة، ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون: علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح...»[1].

ثم يتحدث عن أصل أهلها فيقول: «وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان، يعرفون بالبجاة، ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها.... وهذه الفرقة من السودان المذكورين أضل من الأنعام سبيلا، وأقل عقولا....»[2].

وراعى ابن جبير الذوق السائد في عصره - أحياناً - فسلك في مقدمات وصفه للمدن والمواضع الأسلوب المسجوع (الوسطي)، فالتزم فيه السجع القصير والمتوسط، واستخدم فيه المحسنات البديعية مثل الازدواج، والجناس، والطباق، والاقتباس والتضمين، وأكثر فيه من حشد الصور البيانية كالتشابيه والاستعارات والكنايات ولا سيما الاستعارات المكنية التي تجسم المعاني، وتشخص الجمادات في صور حية تحس وتعقل، ومن أمثلة ذلك قوله في وصف مدينة دمشق: «جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه (عليهما الصلاة والسلام) منها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل.... قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر....»[3] وقد أعجب الباحثون المحدثون بهذه الرحلة،

---

(١) رحلة ابن جبير: ص٤٧-٤٨.

(٢) المصدر السابق: ٤٨-٤٩.

(٣) المصدر السابق: ص٢٣٤-٢٣٥.

فوصفها الدكتور عثمان موافي بأنها «فن أدبي رائع، جمع فيه كاتبه بين الوصف وبين الحكاية أو السرد»[١]. وفي الحقيقة إن هذه الرحلة - كما وصفها كراتشكوفسكي - تعتبر «ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي»[٢] فهي تجمع بين طرافة الموضوع، وتشويقه، ووضوح الأفكار، وترابطها، ودقة الملاحظة، والأمانة في نقل الحقائق، والصدق في الرواية، والبراعة في الوصف، ودقته وشموله، وجمال الأسلوب وبلاغته.

كما أصبحت مصدراً أساسياً من المصادر التاريخية والاجتماعية لبعض المجتمعات الإسلامية في المشرق التي زارها المؤلف في هذه الرحلة.

وكان ياقوت الحموي، أديبا كبيرا كثير الأسفار والرحلات، وجغرافيّا واسع الثقافة، فألف كتاب «معجم البلدان» الذي يعد أضخم كتاب في الأدب الجغرافي، وفي جغرافية البلدان ووصفها، وقد قرن فيه وصف البلدان والمواضع من نواحي الجغرافية الفلكية والوصفية واللغوية والبشرية والتاريخية بالحضارة والدين والادب، فجاء هذا المعجم - كما يقول - كراتشكوفسكي: «أفضل مصنف من نوعه في العصور الوسطى»[٣] إذ لا يزال حتى الآن «يخدم غرضه، ويلعب دوره كمرجع موثوق به مما يقف برهاناً ساطعاً على أهميته التي لا تضارع»[٤].

ويعد ياقوت أشهر مؤلف في الأدب الجغرافي في عصره كما يعد كتابه مصدراً أساسياً من مصادر البحث.

وألف عبداللطيف البغدادي كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» وقد استهله بمقدمة قصيرة، ثم جعله في مقالتين:-

---

(١) عثمان موافي: لون من أدب الرحلات: ص١٨.

(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي: ترجمة صلاح الدين هاشم: القسم الأول: ص٣٠١.

(٣) المصدر السابق: ق١: ص٣٣٥.

(٤) المصدر السابق: ق١: ص٢٣٤.

الأولى: تحدث فيها عن خواص مصر العامة، وعما تختص به من النبات، والحيوان، والآثار القديمة، وغرائب الأبنية والسفن، وغرائب الأطعمة.

والثانية: وصف فيها النيل وزياداته، ثم وصف القحط الشديد، والمجاعة المروعة، والأوبئة الفتاكة التي حلت بمصر في سنتي ٥٩٧ و٥٩٨هـ، ثم قدّم وصفاً حياً لمشاهد اختطاف الأطفال والكبار وأكل لحومهم، والتغرير بالأطباء بحجة عيادة المرضى ثم محاولة الانقضاض عليهم وأكل لحومهم، ولإحراق المجرمين الذين ثبتت عليهم تهم أكل لحوم البشر بأسلوب هادئ تطغى عليه النزعة العلمية.

ومن أمثلة ذلك قوله في وصف الأهرام: «وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية يكون طول الحجر منها ما بين عشرة أذرع إلى عشرين ذراعا وسمكه ما بين ذراعين إلى ثلاثة، وعرضه نحو ذلك، والعجب كل العجب في وضع الحجر على الحجر بهندام ليس في الإمكان أصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة، ولا خلل شعرة، وبينهما طين كأنه الورقة لا أدري ما صنفه ولا ما هو، وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذي لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه....»[1].

وقوله في وصف أكل لحوم البشر في مصر في أثناء المجاعة التي حلت بها سنة ٥٩٧هـ: «.. ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد أحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما، ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم، ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته، ولذلك تطلبه بكل حيلة كل من آثر الاطلاع على علم التشريح ...»[2].

ولا يزال هذا الكتاب – كما يقول – كراتشكوفسكي «محتفظاً بقيمته

---

(١) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار: ص٤٧–٤٨.

(٢) المصدر السابق: ص٨٥–٨٦.

كوثيقة إنسانية، وهو مهم ليس فقط من وجهة النظر الجغرافية الصرفة بل كوصف للأحوال التاريخية والاجتماعية لعصره، ناهيك عمّا يحفل به من مسائل علمية متنوعة»[1].

وهو يمتاز بوضوح الأفكار وترابطها ودقتها، وبالأمانة في نقل الحقائق، والصدق في رواية مشاهداته، والدقة في الوصف، وسهولة الأسلوب وبساطته، وبعده عن الغرابة والغموض والصنعة البديعية المتكلفة، كما أن خياله قريب، وصوره مستمدة من ثقافته، وواقع بيئته ومشاهداته، وعواطفه هادئة حتى أنه يقدم المشاهد المفجعة –كما هي– بأسلوب العالم والطبيب الهادىء.

المجاميع الأدبية:

ألّف بعض الأدباء، مجاميع أدبية بأساليب بليغة، تحدثوا في بعضها عن الأدباء وحياتهم ومؤلفاتهم وأدبهم نظماً ونثراً، وتحدثوا في بعضها الآخر عن الموضوعات الأدبية، وقد كتب بعضها بأسلوب مسجوع، وكتب بعضها الآخر بأسلوب مرسل خال من التكلف والتصنع.

فقد ألف أسامة بن منقذ عدة كتب بأسلوب مرسل سهل بسيط خالٍ من الصنعة البديعية والتكلف مثل كتاب «العصا» الذي جمع فيه مختارات من الشعر والنثر التي ذكر فيها أصحابها العصا، أو بعض المعاني المتصلة بها، واستهله بالحديث عن عصا موسى عليه الصلاة السلام ثم عن عصا سليمان بن داود عليهما الصلاة السلام، ومن أمثلة نثره في هذا الكتاب قوله يصف قراءة الفرنج لكتبهم عند قبور الأنبياء: «... زرت قبر يحيى بن زكريا – عليهما الصلاة السلام – بقرية يقال لها سبسطية من أعمال نابلس، فلما صليت خرجت إلى ساحة بين يدي الموضع الذي فيه القبر محوط عليها. وإذا بباب مردود ففتحته ودخلت، وإذا كنيسة فيها نحو من عشرة شيوخ رؤوسهم كأنها القطن المندوف، وقد استقبلوا الشرق، وفي صدورهم عصي في رؤوسها عوارض معوجة على قدر صدر الرجل منهم، وهم

---

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي: ق١: ص٣٤٦.

معتمدون عليها، وشيخ يقرأ بين أيديهم، فرأيت منظرا يرق له القلب....»[١].

وكتاب «لباب الآداب» الذي نهج في تبويبه منهج التآليف القديمة، ككتاب «الأمالي» لأبي علي القالي[٢] وغيره، وهو يقع في سبعة أبواب هي: الوصايا[٣]، والسياسة[٤]، والكرم[٥] والشجاعة[٦]، وباب الآداب الذي اشتمل على خمسة عشر فصلا[٧]، وباب البلاغة، وهو من أطول الأبواب وأمتعها إذ اشتمل على مجموعة من الأحاديث النبوية، وكلام الصحابة، ومحاسن الشعر والنثر في المديح، وبليغ التشبيه، ومشي النساء والخفر، والشيب، والاعتذار، والعتاب، والرثاء، والغزل[٨]، وباب الحكمة، وقد ضمنه حكماً لحكماء اليونان والفرس والهنود وغيرهم[٩]. ومن أمثلة ما جاء فيه في باب الحكمة: «... احذر مؤاخاة من يجعلك أكثر باله، ويؤثر أن لا يخفى عليه شيء من أمرك، فإنه يتعبك ويأسرك، وليكن صديقك بمنزلة الغصن من الشجرة، ينجذب معك وفي يدك، فإذا خليته رجع إلى موضعه من الصلة وحسن المحافظة، ولم يناقشك المودة ويجعل ذلك سببا إلى القطيعة...»[١٠] ولعل هذا الكتاب من أجل الكتب الأدبية عند العرب لما اشتمل عليه من مختارات أدبية حفلت بالقيم الرفيعة، والمثل

---

(١) أسامة بن منقذ: العصا: ص٣٢٦-٣٢٧.

(٢) هو إسماعيل بن القاسم، ولد في مناز جرد بديار بكر، سنة (٢٨٨هـ/ ٩٠٠م)، وفيها نشأ وترعرع، ثم انتقل إلى بغداد، ثم ارتحل منها إلى الأندلس سنة (٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، وأقام بقرطبة حتى توفي سنة (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، وله مؤلفات عديدة منها: «الأمالي» و«الإبل ونتاجها»، و«البارع في اللغة» وغيرها (ياقوت الحموي: معجم الأدباء: ج٧: ص٢٥-٣٣).

(٣) اسامة بن منقذ: لباب الآداب: ص١-٣٢.

(٤) المصدر السابق: ص٣٣-٧٥.

(٥) المصدر السابق: ص٧٦-١٤٧.

(٦) المصدر السابق: ص١٤٨-٢٢٦.

(٧) المصدر السابق: ص٢٢٧-٣٢٧.

(٨) المصدر السابق: ص٣٢٨-٤٢٠.

(٩) المصدر السابق: ص٤٢٠-٤٦٨.

(١٠) المصدر السابق: ص٤٦٠.

العليا عند العرب والمسلمين وغيرهم، وصيغت بأساليب أدبية موجزة وبليغة.

وكتاب «المنازل والديار» الذي ألفه إثر زيارته لموطنه شيزر بعد ما ضربتها الزلازل المروعة في سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) وقلبت عاليها سافلها، وأخنت على جل قومه بني منقذ، فجمع فيه كثيراً مما قاله الشعراء والناثرون في البكاء على المنازل والديار والأطلال ورثائها، لعله يجد في هذا الأدب الباكي وترديده ما يسري به عن نفسه الملتاعة لانقراض أهله ودمار وطنه[١]، وذلك خلافاً لما جاء في دائرة المعارف الإسلامية، من أن هذا الكتاب «ترجمة كتبها المؤلف عن نفسه، بعد أن اجتاحت الزلزلة أهله وديارهم...»[٢] وقد جعله في جزأين: الأول[٣] يتألف من عشرة فصول هي: ذكر المنازل، والديار، والمغاني، والأطلال، والربع، والدمن، والرسم، والآثار، والمساكن والمعاهد والأعلام والعرصات، والأرض.

والثاني يتكون من ستة فصول[٤]، هي: ذكر الأوطان، والمدن، والبلاد، والدار والمساكن والبيت والمعاهد والأعلام، والعرصات، وبكاء الأهل والإخوان، وقد عقد أسامة لكل معنى من معاني الموضوع المختلفة فصلاً خاصاً، أورد فيه قليلاً من النثر، وكثيراً من شعر الجاهليين ومن تلاهم حتى عصره، ولم يورد نصاً مما اختاره إلاّ وجاء فيه لفظ مما عنون به الفصل.

ومن أمثلة ذلك قوله مبرراً إجادته للرثاء أكثر من غيره من الشعراء: «.. قلت (أي أسامة): لي على من تقدم ذكره من الشعراء أفضل المزية، إذ كنت دونهم صاحب الرزية، فكان شعري أولى أن يقدم على أشعارهم، وإن قصرت بي البلاغة عن اقتفاء آثارهم، لكن للمتقدم السبق، وهو بالتقدمة أولى وأحق، وإن كنت وهم كما قال ذر لأبيه: يا أبه! مالك إذا تكلمت أبكيت الناس، وإذا تكلم غيرك

---

(١) أسامة بن منقذ: مقدمة المنازل والديار: ص٣-٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة محمد ثابت الفندي ورفاقه: المجلد الثاني: ص٨٠: نقلاً عن وصف كراتشكوفسكي لمخطوط هذا الكتاب في (Zapiski).

(٣) أسامة بن منقذ: المنازل والديار: ج١: ص١-٣٦٤.

(٤) أسامة بن منقذ: المنازل والديار: ج٢: ص١-٣٣٨.

لم يبكهم ؟! قال: يا بني ليست النائحة المستأجرة كالثكلى...»[1].

ويعد هذا الكتاب من المؤلفات النادرة في موضوعه.

وألف علي بن ظافر الأزدي كتاب «بدائع البدائه» الذي ضمنه ما سمع به، وما وقع له من حكايات البدائه، وقد رتبه «على ترتيب الأعصار، إلاّ ما يقتضي تقديمه فرط مشابهة ومشاكلة، وزيادة ومقاربة ومماثلة»[2]، وقد كتبه المؤلف بأسلوب أنيق مسجوع، وهو يصفه قائلاً: «.. وقد ضمنت هذا الكتاب البديع النظم، الغريب الاسم، ما وقع لي إلى هذا التاريخ من حكايات البدائه، وكل ما فيه من الحكايات المسجوعة، فخاطري جالب دره، وحالب دره، وساكب قطره، إلاّ ما استنبت به، وقد جاء علالة السائر، وأنس المسامر، وملهاة الساهر...»[3].

وألف ياقوت الحموي كتاب «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» الذي اشتهر بـ«معجم الأدباء» وقد أشار المؤلف في مقدمته إلى من عني بتراجمهم فيه، فقال: «وجمعت في هذا الكتاب ما وقع لي من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين، والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتّاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً، أو جمع فيه تأليفاً....»[4].

ولكنه أهمل معظم تراجم الشعراء الذين لم يعرفوا سوى بقول الشعر فقط، ولم يعرفوا إلى جانبه بالتصنيف والتأليف، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه قد صنف كتاباً مستقلاً في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء[5] ولكن هذا الكتاب فقد وبقي «معجم الأدباء».

---

(١) أسامة بن منقذ: المنازل والديار: ج١: ص٥٢.

(٢) علي بن ظافر: بدائع البدائه: ص٦.

(٣) المصدر السابق: ص٤٠٧.

(٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء: ج١: ص٤٨-٤٩.

(٥) المصدر السابق: ج١. ص٥٠.

وقد رتب المؤلف كتابه على حروف المعجم، وهو أضخم معجم للأدباء على اختلاف اختصاصاتهم حتى ذلك العصر، وأهمها وأكثرها تداولاً.

ويحوي هذا الكتاب كثيرا من المعارف عن الأدباء، فهو يذكر تواريخ ولاداتهم، وتواريخ وفاياتهم وطرائف أخبارهم، وظروف حياتهم، وأسفارهم، والكتب التي صنفها كل منهم، وشيئاً من نثرهم ونظمهم.

وقد اعتمد في مقدمة كتابه على الأسلوب المسجع الحافل بالصنعة البديعية والصور البيانية، ومنها قوله في بيان حافزه على تأليف هذا الكتاب « . . وبعد فما زلت مذ غذيت بغرام الأدب، وألهمت حب العلم والطلب، مشغوفاً بأخبار العلماء متطلعاً إلى أنباء الأدباء، أسائل عن أحوالهم، وأبحث عن نكت أقوالهم، بحث المغرم الصب، والمحب عن الحبّ، وأطوف على مصنف فيهم يشفي الغليل، ويداوي لوعة العليل، فما وجدت في ذلك تصنيفاً شافياً، ولا تأليفاً كافياً. . . . »(١).

أمّا في بقية الكتاب، فلم يلتزم بالأسلوب المسجوع، وانطلق على سجيته في رواية أخبارهم ونظمهم ونثرهم، ومن ذلك قوله في التحاق العماد الكاتب بخدمة السلطان صلاح الدين: « . . . ثم لزم العماد من ذلك اليوم باب السلطان صلاح الدين، ينزل بنزوله، ويرحل برحيله، ولم يغش مجالسه، ملازماً لخدمته حتى قربه واستكتبه، واعتمد عليه، فتصدر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة، وعلا قدره، وطار صيته، وكان إذا انقطع القاضي الفاضل عن الديوان ناب عنه في النظر عليه، وألقى إليه السلطان مقاليده، وركن إليه بأسراره، فتقدم الأعيان، وأشير إليه بالبنان، وكان بينه وبين القاضي الفاضل مراسلات ومحاورات، فمن ذلك أنه لقي القاضي الفاضل يوماً، وهو راكب على فرس، فقال له سر فلاكبابك الفرس، فقال له الفاضل: دام علا العماد، وكلا القولين يقرأ عكساً وطرداً. . . »(٢).

---

(١) ياقوت: معجم الأدباء: مقدمة الجزء الأول: ص٤٥-٤٦.

(٢) المصدر السابق: ج١٩: ص١٨، وهذا الضرب من البديع يسمى «مقلوب الكل» أو «ما لا يستحيل بالانعكاس». (د. أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ج٣: ص١٧٩).

وألف العماد الكاتب كتاباً ضخماً ترجم فيه لعدد من شعراء القرن الخامس، ولعدد ضخم من شعراء القرن السادس الهجري، وأورد فيه – غالباً – بعض أخبارهم، وشيئاً من أشعارهم، ويمتاز هذا الكتاب بأنه يكاد يشمل جل أقطار العالم الإسلامي – آنذاك – كما أن مؤلفه لم يكتف بما ورد في دواوين الشعراء الذين ترجم لهم، بل حاول الاتصال المباشر بعدد منهم فالتقى بهم وأخذ عنهم، وراسل عددا آخر منهم وحصل منه على ما يريده من معلومات وأشعار، كما أنه لم يقف عند ذكر المشهورين من الشعراء، بل احتفى بكثير من المغمورين الذين لم يلتفت إليهم سواه، مما جعل هذا الكتاب من أمهات الكتب في موضوعه، ومصدراً أصيلاً من مصادر الشعر والشعراء في القرن السادس الهجري وقد جعله المؤلف في أربعة أقسام:

الأول: للعراق(١).

الثاني: للعجم وخراسان.

والثالث: للشام، واليمن وتهامة والحجاز(٢).

والرابع: لمصر، وصقلية والمغرب والأندلس(٣).

وقد التزم العماد في هذا المؤلف بأسلوبه المسجع الذي لم يحد عنه في أي من كتبه. ومن ذلك قوله عن الأديب الغزي(٤): «... مولده غزة الشام، وانتقل

---

(١) قام الأستاذان محمد بهجة الأثري، وجميل سعيد بتحقيق هذا القسم بتكليف من المجمع العلمي العراقي.

(٢) قام الدكتور شكري فيصل بتحقيق هذا القسم.

(٣) قام الأساتذة: أحمد أمين وشوقي ضيف، وإحسان عباس بتحقيق ما يخص شعراء مصر فقط. وقام الأستاذان عمر الدسوقي، وعلي عبد العظيم بتحقيق ما يخص الشعراء في صقلية والمغرب والأندلس. ثم قام الأستاذ آذرتاش آذرنوش أيضاً بتحقيق هذا القسم ثم نقحه وزاد عليه الأساتذة محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى.

(٤) هو ابو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي ثم الأشهبي المعروف بالغزي، ولد بغزة سنة (٤٤١هـ)، ثم تنقل في المشرق الإسلامي، وتوفي في بلخ سنة ٥٢٤هـ (العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام. ج١: ص٣-٧٥، وابن خلكان: وفيات الأعيان: ج١: ص٥٧-٦٢).

إلى العراق وإلى خراسان وأصفهان وكرمان وفارس وخوزستان، وطال عمره، وراج سعر شعره، وماج بحر فكره، وأتى بكل معنى مخترع، ونظم مبتدع، وحكمة محكمةالنسج، وفقرة واضحة النهج، وكلام أحلى من منطق الحسناء، وأعلى من منطقة الجوزاء ، فكم له من قصائد كالفرائد، وقلائد كعقود الخرائد، وغرر حسان، ودرر وجمان....»[1].

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣.

obeikandl.com